خيري عبد الجواد

كيد النساء

رواية

دار الآداب - بيروت

كيد النساء

خيري عبد الجواد/مؤلّف مصريّ

الطبعة الأولى عام 2006

حقوق الطبع محفوظة

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّيّ مسبق من الناشر.

دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير - بناية بيهم

ص.ب. 4123-11

بيروت - لبنان

هاتف: 861633 (01) - 861632(03)

فاكس: 009611861633

e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb

www.adabmag.com

كيد النساء

«كيد النسا يشبه الكي
من مكرهم رحت هارب
يتحزّموا بالحنش حيّ
ويتعصّبوا بالعقارب»

(ابن عروس)

القسم الأول

١

بديعة

تحايلت «بديعة» على ملائكة روحها الخيّرة، واختارت بإرادتها الحرّة مصاحبة هاروت وماروت ملاكيْ السحر.

تعلّمت فنونه السوداء على أيدي شياطين الأنس وأرادت تجريب ما تعلّمته في بني آدم، فاختارت الشاب الذى سوف يصبح زوجها وأبا ابنتها الوحيدة فتحيّة.

اسمه نور، كان يشبه رشدي أباظة بقامته الفارعة وبنيانه المتين وشعر رأسه الناعم، والذي كان يثبته إلى الوراء فاستحال لونه إلى الرمادي بفعل الصابون والفزلين. كان عاطلاً عن العمل فامتهن البلطجة، وكان دائم الهرب من الشرطة فاستحالت سيرته إلى أسطورة بديعة الخاصّة والسرّيّة فوقعت فى عشقه، ولم يكن هو يشعر بها، لكنّه جاء إليها «على ملا وشّه» راكعًا ومدلهًا ومعترفًا بحبّه لها لما سحرت له عن طريق عبد القوي بائع الطماطم في الظاهر والساحر الشرّير صاحب الأعمال السفليّة والتي دوّخت بولاق الدكرور كلّها، طلب منها «أثر» نور، فأخذت تتحايل علّها تعثر على حتّة من هدومه فيها ريحة عرقه، اتّفقت بديعة مع بعض

«الصيّع» على التحرّش بنور والإمساك بخناقه وهربدة هدومة، قالت من يجيئني بحتّة من هدومه له عندي مكافأة.

وفي صبيحة أحد الأيّام، وبينما كان نور يمشي فى حارة علي أبو حمد مختالاً فخورًا يقول «يا أرض انهدّي. . .»، هاجمه ثلاثة شبّان مفتولو العضلات، لكن نور الذى كان يفوقهم قوّة، خلع هدومه فأصبح عاريًا إلاّ من الكلوت وطوّح بقدمه في الهواء كما كان يفعل بروسلي، الذي شاهده فى فيلم «الرأس الكبير» حين عرضته سينما مرمر، فجاءت في محاشم الأوّل وسقط على الأرض فاقد الوعي، والثاني ضربه بقبضة يده في وجهه فانفجر الدم من أنفه، والثالث أعطاه مقص رجل أوقعه ووقع فوقه وأخذ يضربه حتى صرخ «حرّمت والنبي يا عم»، ثم ارتدى هدومه ومضى. بديعة التى كانت جالسة في بيتها الكائن بحارة علي أبو حمد تنتظر أن يأتوا لها «بأتر» نور، عرفت بالواقعة، فازداد هيمانها به، وهمست لنفسها: «والله لو كان ضربوه لكرهته». وفكّرت أنّه لن يأتي «بأتر» نور سواها، فكان أن ابتدعت خطّة وهي أن تتعرّف على أخته فهيمة فتعرّفت عليها وصارت صديقتها الوحيدة؛ وفي أحد الأيّام، ذهبت معها إلى منزلها، لم يكن نور موجودًا، أمّه كانت جالسة بالقرب من شبّاك يطلّ على الحارة الضيّقة، عجوز تعدّت الثمانين وفقدت بصرها منذ أربعين سنة. . تقول إنّ المليجي رحل ونور في بطنها حتّة لحمة لم تتشكّل بعد. زينب ابنتها البكر، ونور جاء بعد رحيل والده بثمانية أشهر. تركتهما زينب وذهبت لشراء باكو شاي من محل بقالة على أوّل الشارع. قالت بديعة إنّها ذاهبة لشرب الماء من المطبخ، وتسلّلت إلى الحمّام فعثرت على هدوم وسخة قرب الغسّالة، أخذت تقلّب

فيها حتى عثرت على لباس نور فخبّأته في صدرها وعادت إلى أم نور التي عرفت أنّ اسمها تهاني.

عادت بديعة إلى بيتها وحين انفردت بنفسها أخرجت اللباس من صدرها وأخذت تقلّبه في يدها، كان أبيض كالحًا ومبلولاً، قرّبته من أنفها فشمّت رائحة عفنة مع رائحة أخرى نفّاذة أدارت رأسها وجنّنتها، حتى أنّها وضعت اللباس بين فخذيها ونامت عليه.

في الصباح لم تستطع بديعة الذهاب إلى الساحر عبد القوي، كانت تشعر بكسل لذيذ فأخذت تتمطّع. تذكّرت لباس نور فقامت وخبّأته في دولابها، أحسّت أنّه كان معها طوال الليل. وقرّرت ألاّ تعطي عبد القوي أثر نور، فقط أعطته اسم أمّه حين قابلته، فكتب ورقة بدم الغزال وطلب منها إذابتها في الماء ورشّها على عتبة بيتهم وفي الأماكن التي يخطو فيها؛ فسهرت حتى اقتراب الفجر ثمّ تسلّلت وهي تحمل علبة صفيح ملآنة بالماء ورشّتها كلّها على عتبة بيته وفي الطريق التي يمشي فيها.

كانت تحلم بنور كل يوم، يجيئها في أنصاف الليالي ويظلّ معها حتى الصباح.. كانت تقوم وكل حتّة في جسمها تؤلمها وكأنّه كان يعصرها عصرًا! حلمت بديعة حلمًا غريبًا لم تستطع تفسيره: دخل عليها ذات يوم أخوها الكبير حفني يجرّ خلفه كلبًا مربوطًا بسلسلة، أخذ الكلب «يزوّم» ويهوّش، فلمحت دموعه تسيل على وجهه، نظر إليها باستعطاف وجلس تحت قدميها، وهي حالما رأت الكلب شعرت بدقّات قلبها تتسارع وتعلو مثل طبل، أدارت وجهها خبّأته استحياء، وقالت لأخيها حفني: هل

هان عليك أهل بيتك حتى تدخل عليهم شابًّا غريبًا. وهتف حفني مستنكرًا. شابّ غريب! إنّه كلب وجدته في الشارع فعجبني شكله وصعب عليّ فأحضرته. قالت بديعة: إنّه شاب مسحور. وغابت لحظات عادت بعدها بطاسة ملآنة ـ بالماء، قرأت عليها بالسرياليّة، ثمّ قالت إذا كان الله خلقك كلبًا فكن كما أنت ، أمّا إذا كنت مسحورًا فارجع إلى صورتك التي خلقك الله عليها . ثم رمت الطاسة في وجه الكلب فعطس وانقلب شابًّا جميلاً كان هو نور بعينه، الذي ما إن لمح وجهها حتى وقع في غرامها وتزوّجها ودخل عليها فوجدها درّة ما ثُقبت، ومطيّة لغيره ما رُكبت، فأطلق مدفعه على قلعتها فهدمها. كان هذا الحلم هو نفسه الحلقة التي سمعتها مساء الجمعة الماضية من ألف ليلة وليلة بصوت زوزو نبيل، لكنّها لم تتذكر أنّها سمعت ذلك من قبل، فقط الحلم وحده شغلها عدّة ليال متواصلة، وخافت إن هي أخبرت أحدًا لشكّ في قواها العقليّة، وخافت أكثر أن يتحقّق الحلم فينقلب نور قردًا أو كلبًا ولا تعرف كيف ترجعه إلى صورته الأصليّة، لذا فقد قرّرت ملازمة عبد القوي الساحر علّها تتعلّم منه شيئًا يعينها على أيّامها القادمة، وتعلّمت «الجلجلوتيّة الصغرى والكبرى وكيف تربط محلولاً وتحلّ مربوطًا والطوالع وعلوم السيمياء والأبواب والعزائم والبروج والطبائع والطلاسم وأبواب المحبّة والدخول على الحكّام وضرب الرمل وخلخلة الهوا الكبرى وشبشبة زعزوع وشبشبة ناصور وشبشبة أبو الرياح ومندل المرآة ومندل طيفور وفتح الكنوز..»، وفي خلال ستة أشهر كانت تفوّقت على أستاذها حتى أنّها سخّرته لخدمتها هي التي لم تدخل مدارس أو

تتعلّم القراءة والكتابة، لكنّها حفظت كلّ ذلك على السماع. وفي خلال تلك الشهور والأيّام، كان حبّ نور يتمكّن من قلبها حتى ملك كل حياتها، فأقسمت إن حضر شيطانها فسوف تأمره أن يأتي به مكبّلاً وممسوخًا، وسوف يستعطفها فتعطف وتحنّ وتمنّ وتطلق سراحه بعد أن تردّه بشرًا سويًّا.. حلمها الذي حلمت به ذات يوم! لكن نور العصيّ على شياطين الجنّ والمعوّز من سحر بديعة هزمها ودخل السجن متّهمًا بالسرقة.

بديعة لم تيأس أو تسلُ حبّ نور، وحين علمت بالخبر من أخته ضربت كفًّا بكفّ وقالت كلمة لا يخجل قائلها: لا حول ولا قوّة إلاّ بالله. وأرجعت ما حصل لنور إلى العكوسات، واتّهمت شيطانها بالخيانة، وقرّرت أن تحارب حتى النهاية فذهبت إليه في السجن، وهو الذى لا يعرفها ولم يرها قطّ، سألته سؤالاً وهي تنظر إلى عينيه مباشرة: هل سرقت فعلاً؟ نور أخذ يتفحّصها من قدمها حتى رأسها فوجدها طويلة بلا داع لذلك، وأكثر نحافة ممّا تتحمّل عيناه، ووجد أنّ أنفها المدبّب يعطي مشروعيّة لدمامة وجهها. اسمعي يا ست إنتِ، قال نور مشيرًا بازدراءٍ لَحَظَتْه بديعة. أنا لا أعرفكِ، ولكن أقسم بشرف أمّي إنّي لم أسرق، وإنّني بريء من هذا الأمر.

زاد عجبه حين سمع صوتًا يشبه نقيق ضفدع عطشان يقول له: أنا أصدّقك، وسوف أعمل على إظهار براءتك، ولكن بشرط. سكتت وأخذت تنظر في عينيه؛ وهو أطرق برأسه إلى الأرض مفكّرًا في شرطها: ماذا عساه أن يكون، ومن هي أصلاً حتى تتمكّن من إخراجه؟

أن تتزوّجني. سمع نور جملتها الأخيرة لحظة انتهاء موعد الزيارة، وبينما كان يغادرها فكّر في جملتها بإمعان، وأحسّ أنّ هذه المرأة توشك أن تحاصره فغمغم لنفسه: مش لو خرجت من هنا!

لكن نور لم يمكث في السجن أكثر من أسبوع، خرج بعده حرًّا طليقًا، أكثر من ذلك فقد استطاعت بديعة تقديم الجناة الحقيقيين للمحاكمة، أمّا كيف حدث ذلك! فهو سرّها الذي لم تطلع أحدًا عليه، حتى ابنتها الوحيدة فتحيّة لم تعرف عنها شيئًا. شيء واحد كانت تعرفه فتحيّة، حكته أمّها مئات المرّات أمامها، كيف جاء نور صباح يوم أحد ليخطبها من أمّها وأخيها الأكبر حفني، وكيف استسلم لكلّ شروطهما، والأغرب من ذلك أنّه تزوّجها بعد الخطوبة بعدّة أيّام.

٢

نور

أنا لا أعرفه، فكيف أكتب عنه، هل أكذب؟ أو أتخيّل أحداثًا لم أعشها، أؤلف عن شخص عرفته وأنا في السادسة من عمري؛ وكانت علاقتنا أنّه كلّما رآني ضرب يده في جيبه وأعطاني نوعًا من البونبون يسمّى نادلر، فأفرح لذلك وأحبّه وأتمنّى مقابلته دومًا.

اسمي خيري عبد الجواد، مؤلّف قصص وروايات، من عرفني فقد اكتفى، ومن جهلني أقول له إجابة على سؤاله كيف أزجّ باسمي في هذه الكتابة، هكذا عيني عينك. وقد جرى العرف أن يكون الكاتب الراوي مخفيًّا يحرّك أحداثه من وراء مكتبه، لا أحد يعرف فيما يفكّر، أفكاره يطرحها على ألسنة شخوصه ، آماله وطموحاته وأحلامه يدوّنها على الورق من وراء حجب. أنا غير هؤلاء يا صديقي، أنا أكتب عن نفسي في كلّ ما كتبت، ليس حبًّا فيها إنّما نفسي هي الوحيدة التي أعرفها وعشت معها وخبرتها في كلّ أحوالها. وقديمًا قال أحد الفلاسفة إعرف نفسك، وها أنذا أحاول معرفتها. وكانت بديعة أقدر منّي على معرفة نور. وكيف لا، وهي التي أحبّته وتزوّجته وأنجبت منه ابنة وحيدة اسمها فتحيّة

سوف يأتي الحديث عنها فيما بعد. لذا، فسوف أكتفي بما قدّمته بديعة عن نور في الفصل الأوّل، أمّا ما لم تعرفه بديعة فهو ما سوف أحكيه.

تزوّج نور من بديعة بعد خروجه من السجن مباشرة، ورفضت أم نور أن يعيشا معها في حجرتها، فأخذته بديعة ليسكنا مع أمّها وأخوتها، عاشا في حجرة صغيرة لها باب منفصل عن الشقّة يفتح على بئر السلّم، بينما سكنت أم بديعة والتي كانت تسمّى أمّ حفني على اسم ابنها البكر. هي وحفني ومحاسن وصديقة في الحجرة الأخرى. نور ظلّ عاطلاً عن العمل، وسجائره ومصروف جيبه كانت بديعة توفّرهما له من معاش أبيها، تسرق من بك أمّها ما تيسّر كلّما سنحت لها الظروف، وكانت أمّها تعرف لكنّها تغاضت في أوّل الأمر، ثمّ رأتها تسرق ذات يوم فواجهتها، وغضبت بديعة وكرهت أمّها في تلك اللحظة وتمنّت أن تسخطها قردة، وقالت هي فلوس أبي، ونور لا يشتغل فما حيلتي! تحبّي أولّع في نفسي فيرتاح الجميع. وأم حفني لم تأخذ بتهديدات بديعة ولا بصوتها العالي، وقالت لابدّ من حلّ. علا صوت بديعة وأمّها، وخرج نور على صوتهما ووقف يتفرّج، لم يكن بالمنزل غيرهم، وتجرّأت بديعة ومسكت في خناق أمّها وقالت لها خنقتيني يا شيخة، ما تموتي وتريّحينا من بخلك وقرفك. وأمّ بديعة صعبت عليها نفسها فضربت بديعة على وجهها بكفّ يدها.. خرجت عفاريت بديعة من عينيها فردّت على أمّها بقلم مثله، وجاء نور فزغدها في كتفها فصوّتت، ودفعتها بنتها فوقعت على الأرض وقدمها اليمنى تحتها، صرخت: رجلي انكسرت. ومن شدّة الألم أغمي عليها. حملها نور وجرى وبديعة وراءه إلى مستشفى بولاق

الدكرور العام. قرّر الحكيم علاجًا يزيد عن واحد وعشرين يومًا وجبست رجلها واتهم نور وبديعة بالاعتداء عليها. ونور الذي له سوابق هتف حسبي الله ونعم الوكيل فيكِ يا شيخة، ورمى يمين الطلاق على بديعة التي وقفت مذهولة لا تدري ماذا تفعل في المصيبة التى حطّت على رأسها. فلا هي تقدر ترجع لبيت أمّها بعد أن طردتها هي وأخوتها، ولا هي على ذمّة نور، ماذا أفعل يا ربّي؟ تساءلت وأخذت تبكي، ومن بين دموعها تذكّرت أنّ لها أقرباء في الشارع نفسه، فذهبت إليهم وحكت حكايتها كما تخيّلتها هي فبدت مظلومة، وتعاطفوا معها وبعد إلحاح منهم رضيت بالإقامة عندهم.

هنا أبدأ الحكاية وأنا على يقين ممّا حدث في تلك الفترة، فقد كنت طرفًا فيها، ذلك لأنّ العائلة التي أقامت عندها بديعة عائلتي، كان أبي عامل البناء قد رضي بإقامة بديعة بين الأسرة كأحد أفرادها الذين تجاوز عددهم أربعة عشر فردًا، كان لديه ست بنات فلم يضرّه أن يزدن واحدة أخرى، كذلك أمّي التي كانت تكبر بديعة بعدّة سنوات رأت أن تعطف عليها بعد أن سمعت حكايتها. لم تكن بديعة تمتّ للعائلة بصلة، اللّهمَّ إلاّ صلة الجذور، وذلك أنّها من القرية نفسها التي تقع في محافظة المنوفية وتسمّى «كوم الضبع»؛ وكانت تنتمي لإحدى العائلات الفقيرة والتي لم تكن لها أرض أو زرع بل كانت تؤجر نفسها للعمل لدى الآخرين بأجر لم يكن يكفي للطعام، فاعتمدت على ما يمنحه الآخرون ممّا يفيض عن الحاجة.

أصبحت أنا ابن السادسة أرى بديعة أمامي في كل لحظة، بل

إنّني كنت أصحو من نومي في بعض الأحيان لأجدها نائمة بجواري على سريري بملابسها الداخليّة، وقد انحسر اللحاف عن جسدها الأبيض البضّ، بينما كنت أشمّ رائحة عطرها وعرقها وكانت تبدو لي جميلة. وذات مرّة، صحوت فوجدتها نائمة بجانبي كعادتها على ظهرها شبه عارية، كانت تضع إحدى ذراعيها تحت رأسها بينما ذراعها الأخرى طوحت بها قريبة منّي، وصدرها بدا مثل ربوة عالية بيضاء ومدكوكة، وقد باعدت ما بين ساقيها فانحسر الكلوت على أحد جانبي فخديها فظهر شعر عانتها كثيفًا وأسود ناعمًا، مددت يدي فأمسكت أصابعي بعض شعرها وشددته، صرخت وقامت منتورة تتلفّت حولها في ذعر، وبعد لحظة تنبّهت إلى أنّ الفاعل لم يكن سواي، فنظرت إليّ وتبسّمت ولفّت ساقيها حولي تكاد تعصرني ونامت مرّة أخرى.

تعلّقت ببديعة وتعلّقت أكثر بمداعباتها لي. كنت أنا الوحيد الذي تسمح لي بتقبيلها من فمها، وكنت أحب ذلك لأستمتع بطعم أحمر الشفايف الذي يشبه رائحة القرنفل. وفي كل يوم، كانت تسخّن بستلة الماء على الوابور الجاز السكّاتي، الذي لم يكن سوى دانة مدفع عثر عليها أبي بعد الحرب فقام بمعالجتها لتصلح موقدًا، وقبل الماء تكون قد أتت بكسرونة ووضعت فيها بعض السكّر والماء، وتتركها حتى تغلي ثم تقوم بصبها على البلاط فتجمد قليلاً حتى تصير حلاوة ليّنة تفركها بأصابعها ثم تفردها على مواضع من جسدها تنزع الشعر منها، كانت عمليّة مؤلمة لأنّي رأيت بديعة تصرخ في كلّ مرّة، وحين تنتهي يكون الماء قد غلى في البستلة. فتضعها على الأرض وتضع الطشت

النحاسي الكبير في منتصف الحجرة، ثمّ تخلع ملابسها وتجلس في الطشت وتصبّ فوق جسدها الماء الحارّ بعد مزجه بالماء البارد، سمحت لي بديعة بالاستحمام معها مرّة، ورأيتها تحكّ جسدها الأبيض باللّيف بشدّة حتى كاد الدم يتفجّر منه.

بديعة أصبحت ركنًا أساسيًّا من أركان منزلنا، وبدا أن لا أحد يستطيع الاستغناء عنها، أنا الذي كنت أنتظر مداعباتها لي والتمسّح بها في كل وقت فقد أدمنت رائحتها. وأمّي التي حملت عنها بديعة بعض أعباء المنزل، وحتى أبي الذي كان يصحو مبكرًا للذهاب إلى عمله فيجد بديعة قد صحت قبله وجهّزت فطوره.

لا أحد يدري ما الذي كان يدور في ذهن بديعة في تلك الفترة، لكن أمّي المريضة دومًا والمجهدة طوال الوقت بدأت تشعر بالخطر من بديعة، وأخذت مشاعر الغيرة تعصف بها، لكن ما الذي تفعله؟ أخذتني ذات مساء وذهبنا سويًّا إلى منزل نور، قابلنا أمّه، وسألتها أمّي عنه فقالت إنّها لم تره منذ أشهر ولا تعرف عنه شيئًا، ودعت على بديعة التي طفّشت ابنها وخربت بيته. لكن أخته كانت تعرف، فقد سمعت أنّه يعمل عرضحالجي على باب أحد أقسام الشرطة، واحد من الجيران شافه مرّة هناك. لكن أين؟ لا تدري.

خرجت أمّي من بيتهم وهي مصمّمة على إيجاد نور بأيّة طريقة، فهذا هو الحلّ الوحيد. بيتي هيتخرّب، كانت تغمغم وهي تسحبني من يدي وتهتف قائلة: المرة داخلة على خراب البيت.. مستعفية وفاجرة ولا حد حاكمها.

شعرت بأزمة أمّي، وكنت أرى دموعها على خدّها طوال الوقت في صمت، ولا أحد يدري ما بها سواي. وفجأة أصبحت لا أطيق بديعة، كرهتها وبتّ لا أطيق رائحتها. ورأيتها للمرّة الأولى امرأة دميمة، وأنّها لم تكن جميلة في يوم من الأيّام، وأخذت أعقد المقارنة طوال الوقت بينها وبين أمّي فأنتصر لأمّي.

بعد عدّة أيّام عرفت أمّي مكان نور و.. أخذتني وذهبنا إليه. كان يجلس أمام قسم الشرطة على البحر، أمامه ترابيزة تظلّلها شمسيّة وقلم وعدّة دفاتر وأختام، كان يرتدي جلابية ناصعة البياض فوقها جاكيت بدلة أسود، وكان أكثر تأنّقًا عن ذي قبل، وعند رؤيته لي أخرج من جيبه أقراص النادلر وناولني إيّاها. شرحت له أمّي كلّ شيء من طقطق للسلام عليكم، وفي النهاية قالت له: تعالى خد مراتك ولمّها في بيتك يا ابن الناس. كان نور منفعلاً وظهرت سنّته الذهبيّة متألّقة بانعكاسات الشمس، وقال: دي عيلة وسخة والمرة دي خرّابة بيوت، ابعديني عنهم.. الله لا يسيئك. انشغل نور بعض الوقت بكتابة عرض حال لإحدى السيّدات وانشغلت أنا بمتابعة الداخلين والخارجين من وإلى القسم، وكانت أمّي جالسة مطرقة في صمت. انتهى نور ممّا في يده، وقال لأمّي وهو يرتّب بعض الأوراق: شوفي يا أم جمال دا موضوع مالوش حل، وأنا زهقت من الحتّة كلّها وربّنا هداني ولقيت عمل شريف ونسيت شقاوة زمان، وأنا لغاية دلوقت عمّال أفكّر أنا إيه اللي رماني على العيلة الوسخة دي. أكيد عاملين لي عمل، وأنا متأكّد، دانا حتّى كرهت أمّي وأختي اللّي مالهمش غيري وما شفتهمش من ساعة ما حصل اللي حصل.. تفتكري دا طبيعي؟ قالت أمّي: يا نور يا خويا مصارين البطن بتتخانق

وبيحصل أكتر من كده بين الراجل والست بتاعته، والطلاق خراب بيوت يا خويا. هيّه اللي بعتاكي، قال نور! فحلفت أمّي بأيمانات المسلمين إنّها جاءت من ورائها وقصدها الخير. سلّم علينا نور وهو يقول ربّنا يقدّم اللّي فيه الخير. قالت لي أمّي ألاّ أخبر أحدًا بأنّنا قابلنا نور. وحين رجعنا إلى البيت وجدت أمّي بديعة نائمة على سريرها أبو عمدان بقميص النوم ولم يكن أبي موجودًا، فغضبت أمّي وشخطت فيها، وقالت: استري نفسك يا مرة، البيت فيه رجّالة، فقامت بديعة واتجهت إلى حجرتي وأغلقت الباب على نفسها.

بديعة اشتغلت لنا في الأزرق فتشاجر أبي مع أمّي وكاد أن يطلقها. كانت رائحة البخور تملأ البيت وكانت بديعة تغمغم طوال الوقت بكلام غير مفهوم، كانت ترشّ عتبة بيتنا بالماء الملوّن فيطأه أبي، وكاد يموت حين أعطته طعامًا كان معجونًا بدم العادة فتقيّأه، ولمّت أمّي هدومها وسافرت إلى بلدتنا، وقالت إنّها لن تعود إلاّ إذا مشت بديعة. وأبي قال أنا لا أجيء على الولايا وانكسف يكلّمها، لكنّه سلّط عليها بناته يضايقنها، غير أنّها لم تتضايق، وكشفت أختي حجابًا مخبّئًا في كيس المخدّة التي ينام عليها أبي بعد فوات الأوان، ذلك أنّه أصيب في جسده بحساسيّة جعلته لا ينام بالليل أو بالنهار، وجلس في البيت بلا عمل بينما جسده كان يبدّل جلده طوال الوقت. وعلمت أمّي بخبر مرض أبي فقالت دا ذنبي. وأسرّها أبي في نفسه التي صعبت عليه، ومع قلّة حيلته ومصيبته التي جاءته من حيث لا يدري كان يصرخ من شدّة الوجع، وبناته كنّ يتناوبن على تغيير جلبابه وغياراته الداخليّة

كل ساعة، وكان جلده يخرج ملتصقًا بالجلاّبيّة التي كانت تنزّ صديدًا وماء. بينما كان يلوك المضغ في فمه. قال أبي جرح السلامة كل يوم له علامة، وجرح الندامة التمس له طبيب. وجاء الطبيب وكتب له علاجًا وأوصى بعدم الاقتراب من البيض والفراولة. وراق مزاج أبي بعد ذهاب الدكتور وقال لنا: مش لمّا نلاقي الغموس نبقى ناكل فراولة! ومدّ بوزه وقال: هأو.

ونور الذي غطس بعد زيارة أمّي له، ظهر فجأة يحمل في يده كيس فاكهة. قال إنّه بمجرّد سماعه بمرض أبي ترك ما في يده وجاء فورًا. سلامتك يا عمّ محمّد، يا غالي.

وانتهزها أبي فرصة وفاتحه في أمر بديعة: ما تردّها يا نور وتريّح الجميع. وبديعة التي ما إن علمت بمجيء نور حتى وقفت خلف الباب تتنصّت وهي على سنجة عشرة، فسمعته يقول: شوف يا عم الحاج، هالله هالله على الجدّ والجدّ هالله هالله عليه. اللّي ينكسف من بنت عمّه ما يجبش منها عيال، واللّي أوّله شرط.. ما هو أنا جاي أردّها بس بشرط. كانت كل شروط نور عبارة عن شرط واحد، أن تتبرّأ من عيلتها الوسخة! وإن كانت عيزاني تعتبرني كلّ عيلتها، ودا اللّي عندّي. تنحنح أبي ونادى على بديعة، فجاءت وهي عاملة نفسها مكسوفة وقالت: أيوه يا حاج. مش تجيبي حاجة للراجل يشربها. قال أبي وأشار لنور، فغابت بديعة دقائق وعادت بصينيّة عليها كوب شاي وضعتها أمام نور، الذي نظر إليها فرآها زيّ الفل، فأعجبه شكلها.

نور جاي يردّك يا بنت الناس وانتو ما لكوش غير بعض، بس

له شرط. اللّي تشوفه يا حاج، وسي نور شروطه كلّها على عيني وراسي من فوق. قالت بديعة ونظرت بدلال لنور الذي ما إن سمع كلامها، الذي ينحطّ على الجرح يبرد، حتى هتف: شرطي أن إحنا نبقى في حالنا لا تقولّلي أهلك ولا أقولك أهلي، أهلك همّا أنا، موافقة يا ستّي؟

أم حفني بعد أن فكّت الجبس عجزت، رجلها عقدت على الكسر وأصبحت لا تستطيع المشي عليها، وحين عرفت أنّها لن تمشي أو تتحرّك على رجلها مرّة أخرى صوّتت وبكت، ودعت على ابنتها بديعة وزوجها نور أنّها تشوف فيها وفيه يومًا أسود من قرن الخرّوب.. وحفني، ابنها البكر، كان طويلاً نحيلاً وجهه يشبه قساوة قلب بديعة، كان يعمل نقّاشًا باليوميّة، وعلى معاش والده الذي كان يعمل عطشجي بالسكّة الحديد، كان يستر أختيه فهيمة وصديقة وأمّه العاجزة ولم يفكّر في الزواج قبل أن يدخل البنات بيت العدل؛ ورغم ذلك، فإنّ حفني وقع في حبّ «صفاء» ابنة الناس الذين كان يبيض شقّتهم في شبرا من أوّل عينه ما وقعت عليها وحكايتهما طويلة ومعروفة ـ ليس هذا أوانها ـ.

نور العايق الشاطر.. ربّنا نفخ في صورته وهداه، استقام في عمله أمام القِسْم وحبّب فيه خلقه، وبين عشيّة وضحاها، شوهد يتردّد على الجوامع يصلّي الوقت بوقته ولم يعد يترك فرضًا ولا سنّة، والسبحة استقرّت بين أصابعه تعبث بها على الدوام، وخلال ستّة أشهر ازداد وجهه بياضًا وألقًا بنور الإيمان، واسودّت جبهته من أثر السجود، وتمتّع بشفافيّة جعلته يطرح على بديعة

فكرة مصالحة أهلها وطلب السماح من أمّها، إلاّ أنّها رفضت بشدّة، وقالت: يا نور أنت أهلي وكلّ ناسي وربّنا يخلّيك لي.

وأذاقته تلك السنة ما لم يذقه طوال حياته من سعادة فاضت على روحه حتى طلعت تقابل ربًّا اسمه الكريم. أمّا كيف حدث هذا التحوّل لنور؟ فهو ما تكشف عنه كرّاسة كتبها بخطّ يده ووضعها في ظرف، وكتب عليه بالخطّ العريض: لا يفتح إلاّ بعد موتي، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

٣

منامات نور

جاءت بديعة بعد موت نور إلى بيتنا، كانت ترتدي جلاّبيّة قطيفة سوداء وطرحة سوداء أيضًا، وكانت تبدو على وجهها سمات الحزن على زوجها، أمّي قابلتها بالأحضان وقبّلتها من هنا ومن هنا، وأبي عزّاها في زوجها وأخذ بخاطرها. جلست بديعة مسهمة ونظراتها زائغة، وكانت تحمل في يدها كيس نايلون ملفوف كذا لفّة، أخذت تفكّه ببطء وأخرجت منه كرّاسة بجلدة خضراء.. فرّت الدمعة من عينها وقالت إنّها كانت تقلّب في حاجات نور بعد ما مات ـ الله يرحمه ـ فوجدت هذه الكرّاسة وأشياء أخرى، وأنّها حين رأت خطّه عليها انخطف قلبها، فهي تعرفه رغم أنّها لا تقرأ ولا تكتب، وأحسّت أنّه ترك هذه الكرّاسة لها وحدها، فربما أراد أن يقول لها شيئًا انكسف أن يقوله في حياته. مدّت بديعة يدها بالكرّاسة لي كي أقرأها لها، وتنحنح أبي واستأذن من بديعة في الانصراف، كذلك فعلت أمّي بذكاء وطيبة، فربما كانت هناك بعض الأسرار لا يجب أن يعرفاها.
قالت بديعة وأشارت بيدها: تعالى هنا جنبي عشان أسمعك كويّس. فجلست بجانبها ورائحتها القديمة لم أعد أشمّها. على

الغلاف الأخضر الخارجي كان هناك مربّع كتب فيه: الاسم، الفصل الدراسي، العام، تحت بعضه، وفي الخلف كان جدول الضرب من واحد لمائة، وفي أوّل صفحة كتب بالخطّ الجميل: منامات نور بن عبد الرحمن لمّا تاب الله عليه، وأخذت أقرأ بصوت عال وبديعة تسمع: أنا ـ وأعوذ بالله من كلمة أنا ـ نور ابن عبد الرحمن العرضحالجي بمحلّ عمله الكائن أمام قسم شرطة الجيزة على البحر، أقول قولي هذا وأنا في دار الحق ، وأنتم في دار الفناء، عشت الحياة طولاً وعرضًا، بحلوها ومرّها، سرقت وكذبت وعصيت فما الذي سوف آخذه في النهاية سوى حفرة متر في متر وقطعة قماش تستر عورتي أمام خالقي. أقول لكم ما قاله شيخي ابن عروس لمّا تاب الله عليه:

حرامي وعاصي وكذّاب.

عاجز هزيل العطايا

وتبت ورجعت للباب

حيًّا جزيل العطايا

باب الحرام واسع لا آخر له ، وأنا مشيت فيه وتوغّلت وما عدت أعرف كيف أرجع، حتى أنّني نسيت الأبواب الأخرى، لكن لمّا ربّك يريد يقول للشيء كن فيكون، ورحمته واسعة، فلمّا أراد لي الهداية، أرسل لي علامات على هيئة منامات، وأنا الذي كنت أفهمها وهي طائرة، فهمت ووعيت الرسالة، ومن يقرأ كتابي هذا فليتّعظ، وليأت بورقة وقلم ويكتب: سبحان الله وبحمده عشرة آلاف مرّة ويوزّعها على أمّة المسلمين، فإنّه ناجح بإذن الله.

● منام ١

فرأيت أنّني داخل قاعة مظلمة، فلا لها ضبّة ولا مفتاح، وكأنّي في بركة ماء لونها أسود، من وقع فيها أكله تمساح. ورأيت جمل المنايا نخّ قدام بابنا وأخذني على ظهره المشوم وراح.

* * *

● منام ٢

رأيت نفسي جالسًا في مكان واسع رحيب، وإذا بكراسي صفّت وجلس عليها أصحابها، وقال كبيرهم: اهدموا هذا البيت، وأشار إلى بيتي. فرفع أحدهم النبّوت وأراد وضعه تحت أساس البيت، فتعلّقت بنبّوته وصرخت: لأيّ شيء تريد هدم بيتي. فلمّا رآني تعلّقت بنبّوته هتف: يا دايم. ودفعني بنبوته فغبت عن الوجود مدّة ساعة. وحين أفقت، وجدت نفسي في واد ليس به صريخ ابن يومين، فمشيت فيه حتى انتهيت إلى شجرة عالية خضراء مورقة، فصعدت فوقها وجلست مختبئًا بين الفروع، وإذا بي أجد رجلاً لا أدري من أين جاء، وأخذ يكنس تحت الشجرة ويرشّ الماء، ثمّ أخذ بعد ذلك أحجارًا من الأرض وصار يصفّها على هيئة كراسي فصارت مثل الديوان، ثم نادى قائلاً: بسم الله تفضّلوا، فالمكان خال. وما إن انتهى من كلامه حتى أقبل رجال كثيرون، وجلس كل واحد منهم على حجر من تلك الأحجار، ثم بعد ذلك جاء رجل جليل القدر والمقام وعليه مهابة ، فنهضوا جميعًا وسلّموا عليه بأدب، وعرفت أنّ هؤلاء الرجال جميعًا من أولياء الله، وذلك من أسمائهم التي ناداهم بها الشيخ الجليل

والذي لم يكن سوى القطب الكبير سيدي أحمد البدوي رضوان الله عليه، كان بينه وبيني عمار في الله، وكنت كلّما ضاقت بي الحال وانغمست في الشقاوة والحرام أذهب إليه في مقامه المعروف بطنطا، فكنت في اليوم الذي أريد الذهاب إليه، أصحو مبكرًا على غير عادتي، وآخذ حمّامًا حتى أصبح في حضرته طاهرًا، وحين أصل المدينة، أتّجه مباشرة إلى ساحة مسجده فأجلس على قهوة في مواجهة المسجد، أشق ريقي وأشرب الشاي مع شيشة تفّاحة، حتى إذا ما انتهيت من كل ذلك أخش المسجد وأتوجّه مباشرة إلى ضريح مولانا حيث أجلس بالقرب منه، وأبدأ بقراءة الفاتحة لأمواتنا وأموات المسلمين ثم آخذ في مناجاة القطب الغوث، فلا أشعر إلاّ ونفسي المكروش هدأ ونفسي تنزاح عنها الهموم والغموم وكأنّي اغتسلت في بحر حنانه وعطفه. تلك كانت علاقتي به، فلمّا رأيته فرحت واستبشرت خيرًا، وجلس على أكبر الحجارة والتفت إلى أحد الواقفين وقال له: يا جوهري سمعنا الفاتحة في صحايفنا وصحايف أولادنا وإخواننا وأعمامنا وتوابعنا والآخذين عنهم وعنّا، بسم الله الرحمن الرحيم. ثم قرأ الفاتحة وقرأها جميع الحاضرين بصحبته. وبعد ذلك قال: يا جوهري مدّ قدّامنا بساط الطريق. فقال له سمعًا وطاعة. ثم إنّ النقيب قام على قدميه وقرأ الفاتحة، وقال الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيّدنا محمد سيّد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين، اعلموا أيّها الحاضرون الناظرون السامعون أنّ هذا القطب الذي قرّبه الله واصطفاه هو سيدي أحمد البدوي أمرني بفتح بساط الطريق بين أيديكم، وها

هو مفتوح وعليه الأنوار تلوح لمن يأتي ولمن يروح، لمن له حقّ ولا يصل إليه، أو له جار وجار عليه، فاسمعوا ما أقوله من الخطاب، من كان له خطاب فليحضر إلى هذا الباب أمام سيدي أحمد وبحضرة جميع الأقطاب ليأخذ له حقّه من خصمه بالعدل والإنصاف، لا ظلم اليوم، فلا أفلح من ظلم إنّ الله سريع الحساب. فما أن أتمّ النقيب كلامه، وإذا بيد امتدّت فكأنّها رقبة جمل وأمسكتني من وسطي ورفعتني من على الشجرة، وقدّام سيدي أحمد البدوي وضعتني، وكانت هذه اليد للنقيب المسمّى بالجوهري الذي قرأ الفاتحة، وقال: أنا مدحت النبي والأصحاب وفتحت بساط الطريق، وناديت على من كان صاحب دعوة أو له حقّ فظهر لي هذا الرجل فوق الشجرة، فما تقول فيه.

فقال شيخ العرب: هاته عندي. فلمّا وقفت بين يديه كنت أرتعد خوفًا ومهابة لهؤلاء الرجال. فتبسّم لي سيدي أحمد البدوي وطبطب على ظهري فسكنت الرعدة وثبت فؤادي في التو واللحظة، ثم قال لي: كفاك شقاوة يا نور، أنت من الآن محسوبنا بإذن الله. والتفت إلى رجاله وهتف: اقرأوا الفاتحة لأخيكم بالهداية. ثم قال: يا جوهري خذ بيده وأدخله البستان المعلوم. فأخذني من يدي وسار بي قليلاً فإذا بنا على باب بستان فدخلنا، فوالله ما إن ولجنا من الباب حتى شممت رائحة من أجمل ما يكون، ورأيت منظرًا كأنّه الجنّة فوقف بي عند شجرة نبق وقال لي: مدّ يدك خذ ما هو مقسوم لك. فمددت يدي وقطفت سبع حبّات فكان طعمها أمرّ من الصبر، وقطفت سبع حبّات أخرى فكان طعمها أشدّ مرارة من الحبّات الأولى،

وصرت أقطف وآكل والمرارة تزداد ونفسي اشمأزّت والنقيب يرقبني ويحثّني على قطف المزيد حتى قطفت سبعًا وعشرين حبّة دون أن أجد حبّة واحدة حلوة، فنظرت إليه وقلت كفى فقد عافت نفسي هذا النبق، فتبسّم في وجهي وقال: خذ ما قسم لك، فمددت يدي وقطفت واحدة كانت الأقرب إلى أصابعي فكانت رائحتها كالعنبر ولم أذق في حياتي لا أحلى ولا أشهى منها. عند ذلك أخذني من يدي ورجع إلى سيدي أحمد البدوي الذي قال لي: هل أكلت من الشجرة؟ قلت: نعم. قال صف لي ما أكلته، فوصفت له طعم السبع والعشرين حبّة، والحبّة الأخيرة التي كانت حلاوتها زائدة. فقال سوف أنبئك بتأويل ما أكلت: فأمّا الحبّات السبع والعشرون التي أمرّ من الصبر فهي سنون حياتك الماضية ، وأمّا الحبّة التي حلاوتها زائدة فهي أيّامك القادمة، ثم إنّه ضمّني إلى صدره وتركني فصحوت من النوم.

يقول الراجي عفو ربه نور بن عبد الرحمن: هذا ما رأيته في مناماتي وأنا أعلم تأويله ، فهو ليس كما قال شيخي ومولاي سيدي أحمد البدوي، إنّما الحبّة زائدة الحلاوة هي ما تبقّى لي من الدنيا، والموت قادم لا محالة، هو أقرب إليّ من لحظة نفس خارجة أو داخلة، لذا فقد أخذت سكّة السلامة بعد سكّة الحسرة والندامة لعلّي أفوز برضا المولى عزّ وجلّ، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، وعزائي أنّ كلّ حيّ إلى زوال وموت، إلاّ الحي الذي لا يموت، صاحب الملك والملكوت.

* * *

٤

حفني

جمع حفني القرش فوق القرش ليبني شقّة لنفسه في البيت الذي تركه الأب والمكوّن من دور واحد، وحين انتهى انتقلت أمّه والبنتان إلى الدور الثاني وتركن له الدور الأول، حيث كانت الشقّة عبارة عن حجرتين وصالة وعفشة مياه، كان حبّه لصفاء قد زاده نحولاً من كثرة السهر والتفكير فيها حتى ملأت عليه أحلامه وخيالاته، لم يكن يدري أنّ حبّه كان من طرف واحد فقط ـ طرفه هو ـ ولم يكن مؤهّلاً بطبيعته السمحة الطيّبة بلا شخصيّة حقيقيّة أو إرادة، لقيادة هذا الفرس الجامح المسمّى صفاء، كانت أصغر منه بعشر سنوات، وبينما كان هو طويلاً مفرطًا في الطول كانت هي متوسّطة القامة تكاد تصبح قصيرة، ومع نحولها الشديد كانت تملك جسدًا رائعًا كل ما فيه مدوّر: الوجه، العينان، الصدر، الخصر النحيل الملفوف، الأرداف الممتلئة المستديرة بنعومة وليونة. ولم يكن فارسها على أيّة حال. وما تملكه في تلك الأيّام لم يكن حبًّا، كان شيئًا يتجاوز الحب، لقد أراد امتلاك هذا الجسد الجميل بأيّ ثمن، ولم يكن يفكّر في إحساسها نحوه، وهل تبادله حبًّا بحبّ، واشتهاء ورغبة، لم يكن يعنيه ذلك، فقط

أن يمتلكها، أن تصبح ملكًا له وحده، ووحده تقع عينه عليها، على هذا الجسد الرائع بتكوينه المثير وتلك البشرة التي في لون القشدة شديدة البياض والنعومة. كانت مشكلته أنّ له أختين لم يتقدّم أحد لخطبتهما بعد، كانت أخته الكبرى فهيمة والتي تكبره بخمس سنوات هي المشكلة الحقيقيّة.. لم تكن تتمتّع بأيّ قدر من الجمال، قامة قصيرة وجسد ضامر هزيل، علاوة على وجه له تقاطيع منفّرة. كانت فهيمة تشعر أنّها لن تتزوّج أبدًا، فها هي تعدّت الثلاثين دون أن تتاح لها فرصة للمس رجل، ولم تكن في حياتها السابقة، أي حين بلغت وأصبحت الدورة الشهريّة تأتيها بانتظام، لم تكن لها تجارب من أي نوع مع أقرانها من شباب الحيّ، على العكس من أختها الصغرى صديقة التي مشت مع طوب الأرض وكانت تحكي لها عن مغامراتها البريئة مع الشباب، كانت تشعر بالغيرة من حكايات أختها، لكنّها في نهاية الأمر كانت تقول لنفسها إنّها لو أرادت أن تكون مثل صديقة لفعلت، لكنّها لا تشعر بالحنين إلى الرجال فإنّهم مقرفون، كانت فهيمة ترى في تجربة أختها الكبرى بديعة مع نور ما يجعلها تزداد كرهًا لتلك الفئة من البشر الذين ينحصر كل تفكيرهم في تلك القطعة من الجلد بين أفخاذهم وكيف يشبعونها. وحين جاء محمد عبدون، الشاب الذي يعمل سوّاقًا على عربة نقل، لخطبة صديقة أعلنت فهيمة أنّها موافقة على زواج أختها الصغرى قبلها، وقالت إنها ربّما لا تفكّر في الزواج أصلاً. وانحلّت إحدى العقبات التي كانت تقف في طريق حفني، فها هي إحدى أختيه سينزاح همّها، وبناء على ذلك فقد فاتح أهل صفاء في الاكتفاء حتى بخطبة في الوقت الراهن، ولدهشته، فقد تمّت الموافقة ومن ثم الخطبة التي

رفضتها صفاء أوّل الأمر. كانت تشعر أنّ لديها فرصة في الزواج أفضل من الارتباط بهذا النقّاش الهزيل، فهي تدرك ما يتمتّع به جسدها من جمال، وحين كانت تمشي في الشارع كانت تحسّ بوخزات العيون في جسدها، لكنّها كانت تدرك أيضًا ومن خلال عيون الرجال ما لهذا الجسد من سطوة على العقول والقلوب.

تزوّجت صديقة من محمد عبدون، وانتقل للإقامة معهم في شقّة الدور الثاني، كانت الأم العاجزة قد استقرّت هي وابنتها فهيمة في حجرة، الحجرة الأخرى أقام فيها محمد عبدون وزوجته صديقة التي لم تكن تعرف أنّ القدر يعمل لصالحها مثلما يفعل الآن، فقد اختار لها زوجًا شابًّا ووسيمًا له جسد رائع متناسق كان يحلو له طوال الوقت استعراضه أمامها، لم يكن يتجوّل في حجرتهما الضيّقة إلاّ بالكلوت مستعرضًا عضلات ذراعيه المفتولة وخصره النحيل، فإنّ مهنته الشاقّة في السواقة والعتالة أكسبته بنية قويّة، كانت نظراتها تلاحقه أينما ذهب وهي تشعر بسعادة غامرة أن رضي عنها زمانها أخيرًا، وهي التي لم تكن أبدًا جميلة، كادت أن تصبح جميلة يوم عرسها في عين زوجها الوسيم المستعرض دائمًا، ولم تكن تملّ من التحرّش به وملامسة جسده طوال الوقت حتى يستجيب لمداعبتها، على أنّه لم تمرّ بضعة أشهر حتى انتفخ بطنها وسمنت وترهّل جسدها، كما أنّ ملامح وجهها غير المتناسقة ازدادت تنافرًا مع مرور الوقت، وكان محمد عبدون يتأمّل زوجته وقد أصبحت حركتها بطيئة من أثر الحمل، ويتساءل: كيف تزوّج هذه المرأة؟ هل هو الحب بمراياه العمياء، أم أنّه شيء آخر لا دخل له فيه؟ إنّه القدر الغاشم الذي أوقعه في هذه الورطة!

بعد زواج صديقة، عمل حفني بكلّ طاقته حتى يستطيع تجهيز شقّته، وعمل على إصلاح العلاقة بين بديعة وأمّه وأختيه. فحين مات نور فجأة، لم تخبره أخته، بل عرف من آخرين، وذهب هو وحده للعزاء، ذلك أنّ أمّه والبنتين رفضن الذهاب معه، بل إنّ أمّه اعتبرت موت نور جزاءً عادلاً لما فعله معها هو وابنتها، فبسببهما أصبحت عاجزة مدى الحياة.

ذهب هو وحده، وأخذ بخاطر أخته التي أصبحت وحيدة، وعرف أنّ نور ترك في بطنها طفلاً عمره ستة شهور. عرض عليها العيش معهم في بيت الأسرة، لكنّها رفضت بشدّة وقالت إنّ أمّها طردتها ولم تكن تطيقها لا هي ولا زوجها ـ الله يرحمه. أحسّ حفني أنّه عمل ما عليه، وقال إنّ الأيّام قادرة على محو العداوة وأنّ مصارين البطن تتعارك وأنّ الضفر ما يطلع من اللحم وتركها ومضى. وحين تزوّجت صديقة، لم تحضر بديعة عرس أختها ولم يدعها أحد أصلاً، فقالت بَرَكَة اللي جت منك يا جامع، لكنّها أخذت على خاطرها وصعبت عليها نفسها. ولمّا اقترب موعد زواج حفني ذهب إليها مرّة أخرى، وقال لها: المرّة دي مالكيش حجّة، أنا جيت يا أختي أعمل اللّي عليّ ولابدّ من حضورك وهي فرصة يلتمّ الشمل مرّة تانية. قرّرت بديعة حضور فرح أخيها وقالت له: سمعت أنّ عروستك حلوة. تساءل حفني بدهشة، كيف عرفتِ! هي فعلاً جميلة وها تحبيها لمّا تشوفيها.

وفي حارة علي أبو حمد الضيّقة عمل حفني فرحه على الضيّق، لم يعزم إلاّ قرايبه الذين يحبّهم، كذلك بعض أصحابه، وجاءت العروسة بكلّ أهلها وهي زيّ الفلّ حتى أنّه ظهر بجانبها

مثل الغراب النوحي. كانت صفاء رافضة الزواج منه، ولم تستطع أن تحبّه، لكنّ الأم والأب أصرّا على إتمامه، وقالت أمها إنّ الحبّ يأتي بعد الزواج وإنّ حفني شاب طيّب وعلى نيّاته، وإنّها تستطيع أخذ حباب عينيه وطيّه تحت جناحها، وليلة الدخلة دخلت معهما أمّها وأخذوا شرفها بلدي، وعملوا زفّة بالمحارم المنعاصة بالدم لفّت بولاق الدكرور كلها، وحفني الذي لم يكن يصدّق نفسه أخذ يتحسّس جسد صفاء، وملمس بشرتها الناعمة يسري بين أنامله فيشعر بالعجز عن عمل أيّ شيء، وكانت هي أكثر جرأة منه فخلعت له كل ملابسها ووضعت مخدّة تحت ردفيها وساعدته على الإنعاظ وهي ترهز من تحته حتى هدم قلعتها وخربها، وانتهت الليلة على خير. وفي يوم الصباحيّة جاءت أخته فهيمة بصينيّة عليها فطير مشلتت، عملته منذ الفجر عند سيد الفطاطري وعسل نحل. وشعر حفني أنّ الدنيا تضحك له فصار يلقّم عروسته الفطير المغموس بالعسل وهو لا يشبع من النظر إليها، وهي بقميص نومها الأسود المحبك الذي كاد يأكل من جسدها الأبيض حتة. وظلّ مقيمًا في البيت أسبوعًا كاملاً لا يفعل شيئًا سوى أن يأكل وينام مع عروسته حتى خلصت فلوسه فنزل الشغل بالعافية، وهي ما صدّقت أن خلصت منه حتى تنهّدت راحة، فهذا المخلوق الذي يشبه الصرم لا يشبع أبدًا حتى أنهكها، وطلعت لأوّل مرّة أمام البيت وجلست قرب العتبة تتفرّج على المارّة من جيرانها، سكّان حارة علي أبو حمد، وتتكلّم مع النسوان الرائحة والغادية.. وجاءت صديقة لتجلس بجانبها ويدور بينهنّ الحديث الذي لا ينقطع في الأسرار الخاصّة والعامّة،

حدّثتها صديقة عن زوجها محمد عبدون، وكيف يعصر جسدها ويجعل عظامها تطقطق على نار جسده، وأنّها لم تعد تحتمل ثقل جسده وعضلاته المفتولة التي لا تترك جسدها إلاّ وهو كالعجينة الطريّة. وصفاء لمعت عيناها شهوة، ولم تحدّثها عن أخيها حفني العامل مثل خيال المآتة، ولا عن المجهود الكبير الذي يبذله كلّما اقترب منها، ولا النهجان وانقطاع نفسه وكأنّه جرى من بولاق الدكرور للعتبة، ولم تحدّثها صديقة عن العلْقة الساخنة التي تأخذها كل يوم من محمد عبدون الذي لم يعد يطيق سماع صوتها، ففي خلال ستة شهور زواج طلّقها أكثر من اثنين وعشرين مرّة، كان يرمي عليها يمين الطلاق صباحًا وهو ذاهب إلى عمله، وحين يعود، يكون قد نسي كل شيء فيرمي عليها اليمين مرّة أخرى حين يذهب للنوم، وإذا لسانها طال عليه، فإنّه ما كان يضربها إلاّ بقبضته في أيّ عين يرى أنّها مناسبة لتحمّل غضبه الجنوني. . لكن صفاء كانت تلمح آثار تلك المعارك على وجه صديقة، والتي ما كانت أبدًا تبدي السبب الحقيقي وراء تلك الكدمة، وذلك الورم، أو الخدوش بأسفل الرقبة، ولم تكن تملّ من اختلاق أسباب وجيهة لذلك، فهذه من أثر وقعة، وتلك خبطة في بوز الترابيزة، وأخرى خربشة قطة وهكذا. كانت صفاء تلتهب مشاعرها من رؤية تلك الكدمات، وتحسد صديقة على ذلك، فعلى الأقل لها زوجٌ رجل وليس كزوجها الذي لا يهشّ ولا ينش، فقط مخه في بتاعه المرخي دائمًا، ويا ليته بقوّة محمد عبدون الذي أصبحت تفكّر فيه ليلاً نهارًا وهي التي لم تره سوى مرّات قليلة. وقرّرت أن تتحرّش به، ففتحت الباب ذات صباح

مبكر، وبينما كان ينزل السلالم مستعجلاً ذاهبًا إلى عمله، الذي تأخّر عليه، وجدها أمامه، كانت ترتدي جلبابًا نظيفًا ومحبوكًا أظهر تفاصيل جسدها، وكان عند صدرها مكشوفًا فأظهر تقاطيع ثدييها النافرين بنهر عميق كان يتوسطهما. وقف وقال صباح الخير فمدّت يدها تصافحه، وشعر بليونة كفّها ودفئها وهي تنظر إلى عينيه بإغراء جعل جسده ينمّل. وسحب يده وخرج وعيناها لم تفارقا خياله طوال اليوم. وفي المساء أيضًا قابلته مصادفة مثل الأولى، كانت عند زوجته في الطابق الثاني حين دخل ورآها بالجلاّبيّة نفسها، التي تكشف صدرها والذي يبدو وكأنّه مدلوق إلى خارج الجلباب: أبيضان وبضّان بنهر عميق يشقّهما، وجلس بالقرب منها بينما ذهبت زوجته لإعداد العشاء. كان جسدها يكاد ينفجر من ثنايا الجلباب الضيّق ويشعّ حرارة كادت تحرقه، واستقرّت عيناها على صدره العريض البارز بشعره الكثيف. وحين أتت زوجته بالطعام كان كلّ منهما ومن خلال الصمت مغرقًا في خيالاته، وتجرّدا من ملابسهما والتحما مثل جبلين، وفي تلك الليلة ضرب محمد زوجته صديقة علقة موت، وأعطت صفاء ظهرها لزوجها ولم تعد تطيق رائحته أو رؤية وجهه. وأحسّت صديقة بأنّ هناك شيئًا يدور من وراء ظهرها بين زوجها وزوجة أخيها، بينما أخوها حفني لم يحسّ شيئًا، كان يخرج صباحًا ولا يعود إلاّ متأخّرًا منهكًا ليس له دخل بما يحدث.. فقط، كان يطلب رضاء زوجته عنه، وكان يتلمّس هذا الرضاء بكل الطرق. وأخذت صديقة تنتبه بكل حواسها لما يحدث خلف ظهرها، ولمحت نظرات زوجها لزوجة أخيها، وكذلك نظراتها إليه،

وأرادت أن تقطع الشك باليقين. ففي أحد الصباحات المبكرة تنبّهت من نومها على صوت زوجها يرتدي ملابسه ويهمّ بالخروج، تظاهرت بالنوم حتى انتهى وخرج وأغلق الباب وراءه، تسلّلت وفتحت الباب وراقبته وهو ينزل السلالم، سمعت باب شقّة أخيها يفتح ثم يغلق، ولم تعد تسمع شيئًا، نزلت السلالم حافية على أطراف أصابعها ووقفت أمام باب شقّة أخيها البرّاني، فالشقّة كان لها بابان، أحدهما يفضي إلى الداخل، أمّا الآخر فكان بالقرب من مدخل البيت ويفضي إلى إحدى الحجرتين بالشقّة، تلك الحجرة التي كانت تسمّى حجرة «الجلوس» والتي جعلتها صفاء للنوم بدلاً من الأخرى في الداخل، انحنت ونظرت من خرم المفتاح فوقعت عينها على السرير في المواجهة، ورأت زوجها عاريًا يتمرّغ في أحضان صفاء التي كانت عارية أيضًا، وسمعتها تصرخ من اللذة. في خفوت تسحّبت صديقة حتى طلعت شقّتها ودخلت حجرتها ولطمت على وجهها وصرخت: يا مصيبتي. وشهقت بالبكاء، لكنّها تعمّدت أن تفعل ذلك في هدوء حتى لا يسمعها أحد، ومن بين دموعها همست: وحياة مقصوصي لأفرّج عليك أمّة ما خلق يا محمد يا عبدون أنت وصفاء وأخلّي فضيحتكم بجلاجل. على أنّها لم تجد ما تفعله سوى أن تجلس وتنتظر الفرصة التي طالت وقد بدا لها أنّها لن تأتي أبدًا. كانت تعرف الآن أنهما يلتقيان يوميًّا ليدنّسا سرير أخيها المغفّل والذي من المؤكد أنّه لم يعرف شيئًا، ومن ناحيتها فإنّها، وبتلقائيّة، تجنّبت المشاجرة مع زوجها كما كانت تفعل، بل إنّها كانت تتحاشى النظر إلى عينيه، وعاملته بودّ تعمّدت أن

يبدو طبيعيًا، وحتى زوجة أخيها صفاء، فإنّها عاملتها بالودّ نفسه، وكأنّها لا تعرف ما يدور وراء ظهرها. كانتا تجلسان معًا كل يوم ساعة العصر أمام باب المنزل تراقبان الناس في الحارة وتدور بينهما أحاديث النميمة. كانت صفاء دائمًا نظيفة معطّرة بعد استحمامها اليوميّ، حتى ليكاد الدم يفرّ من وجهها. كانت صديقة تعرف السبب طبعًا، لكنّها أبدًا ما بدا عليها شيء ممّا تعرفه. وقد جاءتها الفرصة أخيرًا بعد طول صبر وعلى غير انتظار، جاءت على طبق من فضّة، بعد خروج زوجها، وفي أحد الصباحات، لم تجد ما تفعله سوى أن تكنس حجرتها وتقلبها رأسًا على عقب في محاولة لتنظيفها، وبالزعافة أخذت تمرّ على الأشياء لتزيح التراب العالق بها، جاءت بكرسي أمام الدولاب ووضعته وصعدت فوقه، ومرّت بالزعافة على ظهر الدولاب الغاطس، واصطدمت الزعافة بشيء راح يخربش، شبّت على أطراف أصابع قدميها ومدّت يدها تبحث عن هذا الشيء حتى وجدته، شريط تسجيل وضع في كيس نايلون مطويّ عدّة طيّات. نزلت صديقة وأخذت تقلب الشريط بين يديها ثم فتحته ووضعته في جهاز تسجيل قديم كان زوجها اشتراه من سوق الجمعة. أدارت الجهاز فأصدر أزيزًا وخربشة وأصواتًا مبهمة استطاعت بالكاد تمييز صوت زوجها. أغلقت المسجّل ووقفت حائرة بعض الوقت ثم خرجت إلى الشرفة ونادت جارتها في البيت المقابل، ورجتها أن تعطيها المسجّل لمدّة عشر دقائق.. جايلنا ياختي شريط من واحد قريبنا مسافر برة ومش عارفين نسمعه على الجهاز بتاعنا. كانت تعرف أنّ مسجّل جارتها جديد، جاء به زوجها من ليبيا حين كان مسافرًا

وكان يحلو له دائمًا وضعه في الشرفة ويطلق صوته على الآخر بأغاني سعدون جابر ومحمد عبده. وضعت الشريط في الجهاز وأدارته. فميّزت الأصوات بوضوح، كان زوجها في أحضان صفاء، سمعتها تقول له أحبك يا محمد. وهو يقول لها أحبك يا صفاء. والاثنان يقولان كلامًا فاحشًا اقشعر منه بدنها، كلامًا لم تسمعه من قبل حتى وهي بين ذراعي زوجها. لكنّها رغم غمّها فرحت للمفاجأة فإنّها لم تكن تحلم بأكثر من ذلك.. خبّأت الشريط في صدرها، وانتظرت حتى جاء يوم الجمعة، يوم عطلة أخيها وزوجها وجاءت بمسجّل جارتها الكبير ووضعته في بئر السلم على البسطة ثم أدارته وفتحت الصوت على آخره. كان زوجها نائمًا فانتبه وهرع إلى مصدر الصوت، وفتحت شقّة أخيها وخرج هو وزوجته، وتجمّع بعض الجيران في مدخل البيت على صوت الآهات والتنهّدات. كانت صديقة تريد للجميع فضيحة بجلاجل، وها هي ترى زوجها يعضّ على شفتيه غيظًا وقد احمرّ وجهه خجلاً ورعبًا ممّا سوف يحدث، ولام نفسه على تسجيل الشريط سرًّا لصفاء وهو معها، كانت غلطة منه أن يفعل ذلك، كان غرضه التسلية، وكتذكار لأيّامهما معًا. انتظر حتى انفضّ المولد وتسحّب خارجًا من المنزل في صمت بشنطة هدومه، هي أيضًا لم تقل شيئًا اكتفت بما فعلت وراقبته وهو يتسلّل خارجًا. أمّا أخوها حفني، ففي اليوم التالي، وعند أذان الفجر، جاء بعربة حملت العفش، وخرج هو وزوجته تحت غبش الفجر.. ولم يعودا إلى الحارة مرّة أخرى إلاّ بعد ست سنوات كاملة قضياها في التيه!

٥

أم حفني

دعمت أم حفني أسطورة حياتها الخاصّة بأن ماتت ست مرّات خلال عمرها الذي تجاوز التسعين، عاشت منه أربعين سنة عاجزة عن الحركة بعد أن أصابتها ابنتها بديعة وزوجها نور. أم حفني تخلّى عنها زوجها بحبح ومات تاركًا لها ثلاث بنات وصبيًّا وحيدًا، وهي التي لم تكن قد تجاوزت الثلاثين حين رحل، لم تفكّر في رجل آخر غير زوجها وقرّرت تربية أولادها بمعاش صغير حيث كان بدل تقاعده في السكّة الحديد. لم يكن قريبًا لها أو حتى من قريتها «كوم الضبع». لقد جاء في زيارة للبلدة مع أحد أقربائها ووقع نظره عليها فأعجبته وتزوّجها، وجاء بها إلى بولاق الدكرور وأقاما في السكن الخاص للعاملين في السكّة الحديد. في ذلك الزمن كانت بولاق الدكرور مستنقعات مائيّة تنمو فيها نباتات الحلفاء، وبعض البيوت المتناثرة هنا وهناك. استطاع بحبح أن يكوّن ممّا تبقّى من راتبه مبلغًا اشترى به قطعة أرض صغيرة بنى عليها هذا البيت، وعاش معها عشر سنين أنجبا خلالها حفني وبديعة ومحاسن وصديقة، ثم تركهم فجأة وأكبرهم حفني لم يتعدّ الثماني سنوات. معاشه سترها هي وأولادها إلى أن كبر حفني وعمل نقّاشًا فتحمّل معها حمل تربية البنات. كان

حفني هو رجلهم بعد موت الأب، ديك البرابر، ولم يكن أبدًا مثل أبيه، ربما هي ساهمت في أن تجعل منه رجلاً بلا شخصيّة أو إرادة حقيقيّة حين كانت تنتصر لبناتها على حسابه؛ كانت بديعة هي الأقوى دائمًا، وقنع حفني بأن ينطوي تحت جناحها، تمامًا مثلما فعلت زوجته صفاء، أصبح تحت رجلها، مرمطته وحطّت رأسه في الطين، وبدلاً من أن يطلّقها أو يقتلها كما يفعل الرجال، أخذها ورحل فهو لا يستطيع الابتعاد عن المرة النجسة، ومستعدّ يبوس طيزها حتى ترضى عنه.

أحسّت أمّ حفني بالانكسار بعد ضرب بديعة ونور لها. وحين مات نور رأت أنّ الله انتقم لها منه ومن ابنتها، وأنّ هذا جزاء عادل، فسوف تبقى عاجزة برجلها طوال حياتها؛ وأحسّت بالانكسار يوم سمع كل الخلق الفضيحة التي صوّرتها صديقةُ لزوجها وزوجة أخيها والكلام الفاحش الذي سجّله محمد عبدون لنفسه ولعشيقته ـ شوفوا الخيبة ـ كانت صديقة مصمّمة على الطلاق وخراب بيتها، ولاد الحلال توسّطوا بينهما ورجعت الميّة لمجاريها، وهو على ما يبدو انصلح حاله، فلم تعد صديقة تشكو منه أو يطلع لها صوت، حتى إنّها في ظرف خمس سنوات أنجبت منه ولدين وثلاث بنات. حفني اختفى هو والفاجرة ولا أحد يعرف عنهما شيئًا.. أمّا فهيمة فهي التي بقيت لها، لم تتزوّج رغم أنّها أكبر من صديقة، لكنّها قسمة ونصيب أن تقعد فهيمة معها حتى تخدمها وتقوم على طلباتها، ورغم أنّ فهيمة كانت يديها ورجليها، إلاّ أنّها كانت تتمنّى زواجها مثل إخوتها، كانت ترقبها وماء الشباب يجفّ من جسدها ببطء حتى ضمر وباتت عجوزًا.. رأتها ذات مرّة تتلصّص من خرم الباب على أختها وزوجها، كان ذلك بعد زواجهما مباشرة. لم تقل لها شيئًا، لكنّها أحسّت بحسرة ابنتها

على نفسها. أنقذتها من ميتتها الأولى حين توقّف قلبها ذات مساء بينما كانتا تجلسان أمام التلفزيون، رأت فهيمة أمّها تضع يدها على صدرها وتميل برأسها وجسدها على الكنبة بلا نَفَس، فقط آهة عميقة أعقبها سكون الموت. فزعت فهيمة وزعقت على أختها التي جاءت ورأت أمّها مرميّة على الكنبة، فصوَّتت، جاء حفني مهرولاً هو وزوجته وحين رآها أخذ يبكي وجلس على قرافيصه والتمّت الناس وأخذ الجميع يصوّتون ويلطمون. ومحاسن التي كانت قريبة من أمّها وضعت يدها على صدرها بحركة لاإراديّة ودلكته، ولدهشتها فقد وجدت قلب الأم ينبض تحت كفّها، وإن هي إلاّ دقائق حتى كانت أم حفني جالسة على الكنبة تنظر إلى الجمع الملتفّ حولها بذهول وهي تقول: هو فيه إيه.

احترفت أم حفني الموت كما احترفت ابنتها صديقة السرقة بالضبط، توقّف قلبها عن الدقّ عدّة مرّات حين كان يحلو لها أن تفعل ذلك، وفي إحدى المرّات طالت غيبتها عن الدنيا فذهب ابنها حفني واشترى لها كفنًا شرعيًّا سبع طبقات قدّر لها ألاّ تكفّن فيه أبدًا، ذلك أنّه ظلّ في دولاب ملابسها مدّة أربعين سنة ملفوفًا ومنسيًّا، وحين ماتت موتتها الأخيرة وأرادوا إخراجه، كانت العتّة قد أتت عليه وما عاد صالحًا ممّا اضطرهم لشراء كفن جديد للأم الميتة.

قبل عشر سنوات من رحيلها النهائي أصيبت بمرض السكر والضغط معًا، فهيمة التي راقبت أمّها عدّة ليال متتالية اكتشفت أنّ شيئًا غير عادي يحدث، كانت أمّها تطلب منها الذهاب للحمّام كل نصف ساعة تقريبًا، «فإنّ مثانتي تكاد تنفجر» ـ تقول لها فتحملها فهيمة على ظهرها حتى انهدّ حيلها، ممّا اضطرها لإحضار مبولة بلاستك في الحجرة، وضعتها بجانب أمّها وتقوم

بإفراغها طوال الوقت. كما لاحظت شرب أمّها للماء بكثرة فتعاونت هي وحفني وأخذاها إلى مستوصف الحاج بكري القريب من المنزل، وطلبت عمل تحاليل لها فظهر السكر في دمها وبولها، لكنّ المرأة ما كانت لتصدّق مرضها، كانت تأخذ حبوب السكّر والضغط على مضض وبعد نشفان ريق فهيمة. وقبل يوم من رحيلها الأبدي فاجأتها غيبوبة سكّر، كان ذلك في صباح أحد الأيّام، وظلّت مستلقية على سريرها لا تعي شيئًا ممّا حولها حتى منتصف اللّيل حين قامت فجأة وجلست على السرير في كامل وعيها ونظرت حولها.. كان حفني وزوجته يجلسان على الأرض وبديعة وابنتها الصغيرة فتحيّة، ومحمد عبدون وصديقة وأولادها، ومحاسن كانت جالسة بجانبها على حافة السرير، ابتسمت للجميع وقالت: مالكو.. هو فيه إيه؟ ردّد الجميع في نفس واحد: حمدًا لله على السلامة يامّه. قالت بدهشة: هو أنا كنت مسافرة وما اعرفش.

قال حفني: لأ يامّه.. كنتِ في غيبوبة من صباحيّة ربّنا.

غيبوبة إيه وكلام فارغ إيه. ما أنا قدامكم أهو زيّ الفل! ونظرت لمحاسن وأكملت: طب دا أنا حاسّة أنّي جعانة أوي، أومي يا بت هاتيلي شويّة محشي في طبق. أصل أنا شامّة ريحته. والتهمت أم حفني في تلك الليلة حلّة محشي كاملة، وطلبت بعدها كوب شاي ثقيل، وظلت ساهرة حتى صلّت الفجر ونامت.. لكنّها لم تصحُ طوال يوم كامل ولا اليوم الذي تلاه. ظنّ الجميع أنّها إحدى موتاتها، وأنّها لن تلبث حتى تعود مرّة أخرى، لكن رائحة كريهة انبعثت من جسدها الذي بدأ يتحلّل. في تلك اللحظة فقط، أيقن الجميع بموت الأم الكبيرة.

* * *

القسم الثاني

١

فتحية

إقلب القدرة على فمها تطلع البنت لأمها.

فتحيّة طلعت مثل بديعة، وما حدث مع أمّها سوف يحدث معها، يفصل زمنهما عشرون عامًا بالضبط.

فتحيّة ولدت بعد موت أبيها نور بستة أشهر، وبديعة التي هدّها موت نور أقسمت ألاّ تفرد شرّها على ظهر رجل آخر، وأن تعيش من أجل ابنتها اليتيمة فعملت خادمة في البيوت من أجل عيون فتحيّة، التي كلّما كبرت شبرًا زغردت حتى جاوز طولها في الإعداديّة طول أمّها في الخمسين، نجحت في الإعداديّة بمجموعٍ أهّلها لدخول مدرسة التمريض، فقد أرادت أن تكون إحدى ملكات الرحمة، تعلّمت ضرب الحقن جنبًا إلى جنب مع فنون السحر التي دأبت بديعة على تعليمها لابنتها الوحيدة. في البداية، وحين كانت فتحيّة طفلة لم تتجاوز العاشرة بعد، أرادت تسليتها، فكانت تجهّز قالبين من الطوب وتضعهما في مواجهة بعضهما وفي وضع الواقف، ثمّ تتلو بعض عزائمها فيتناطح القالبان في صراع دام حتى ينكسرا، كانت تحبّ رؤية الدهشة في عيني ابنتها التي ما

إن وعت ما يدور حولها وما تفعله أمّها حتى قالت لها: علّميني ما تعلّمتِه.

فتحيّة تعلّمت كل شيء، وتبحّرت في العلوم الروحيّة والسيماء والأبواب والعزائم والطوالع والبروج والطبائع والطلاسم وأبواب المحبّين والدخول على الحكّام وحلّ المربوط وربط المحلول وضرب الرمل وخلخلة الهوى الكبرى وشبشبة زعزوع وشبشبة ناصور وشبشبة أبو رياح ومندل المرآة ومندل طيفور والجلجلوتية الصغرى والكبرى وفتح الكنوز.. وكلّها فوائد على الصحّة والتجربة. هكذا أخبرتها أمّها بديعة وقالت أيضًا: حين أحببت نور ـ أباكِ ـ المرحوم، شبشبت له الثلاث شبشبات وخلخلة الهوى الكبرى فلم يأخذ في يدي غلوة، ولكن ينبغي الحذر من عدم معرفة كيفيّة صرف الخدّام، فإنّهم ينقلبون ضدّك ويحرقونك، فكوني على بيّنة من أمرك.

وحين تخرّجت فتحيّة من مدرسة التمريض أرادت أن تصبح ملاك رحمة، لكنّها تحوّلت بقدرة قادر إلى ملاك جحيم لمّا رأت «رمضان» فأحبّته من أوّل نظرة، وتمكّن عشقه من قلبها، فما عادت تعرف طعم الراحة ولا الليل من النهار. ورمضان الذي تخرّج من مدرسة الزراعة المتوسّطة عمل في وزارة الزراعة موظّفًا وجاء من بلدته «كوم الضبع» ليسكن في بولاق الدكرور. كوم الضبع قرية أمّها، والتي لم ترها أبدًا، قذفت برمضان ليسكن بجانبها، وكي تراه وتحبّه هو الذي لا يُحب أبدًا، كان مثل الصرم، طويلاً جدًّا ونحيفًا جدًّا، ونظره الضعيف جدًّا جعله

يرتدي نظارة كعب كباية، مع شعره الأحمر المفلفل المجعّد، وأنفه الطويل المعقوف، فإنّ منظره لا يجعل أحدًا يحبّه، ولكن مرايا الحب عمياء، وكما قرأت فتحيّة في كتبها الصفراء: فإنّ كل فرج كتب عليه اسم ناكحه. فقد آمنت بتلك المقولة إيمانًا مطلقًا جعلها تخلع ملابسها طوال الوقت وتتحسّس جسدها بأناملها، فتجد اسمه محفورًا هناك بحروف بارزة وحادّة تكاد تنطق، فتشعر بالنشوة وتصبح على يقين من أنّه هو وحده سوف يمتلك جسدها، ووحده فقط من سيصل إلى مكامنها، أليس اسمه مكتوبًا هناك على باب مغارتها؟

* * *

٢

فتحيّة

فتحيّة أخذت تترصّد حركات رمضان، وعرفت أنّه يحبّ واحدة أخرى تسكن على بعد ثلاثة شوارع من شارعها، وأنّها تنتمي لهم بصلة قرابة من بعيد. . من البلد يعني! وفتحيّة قالت قطيعة كوم الضبع والذي يأتي منها، وكانت في حاجة شديدة إلى حتّة من إتر رمضان. وحين علمت أمّها بديعة ضحكت، ولم تكن فتحيّة تعلم أنّ أمّها تذكّرت قصّتها نفسها مع نور، وكيف أنّها داخت السبع دوخات حتى جاءت بإتر نور، لباسه الداخلي، والذي ما زالت تحتفظ به حتى تلك اللحظة ـ كأيقونة خاصّة بها وحدها ـ في كيس نايلون مخبّأ في دولابها، حتى نور ـ ألف رحمة ونور عليه ـ لم يعلم أبدًا بهذا الأمر.

وقالت بديعة لنفسها: أنا كنت واسعة الحيلة في زمني، أمّا ابنتي فلها ربّ اسمه الكريم، ما الذي سوف تفعله في هذا الموضوع!!

باب في تسخير وجلب محبّة رمضان

في مخمّس خالي الوسط كتبت: فتحيّة ـ رمضان، بماء ورد وزعفران وبخّرت بالجاوي والمسك والعنبر وقرأت حسبنا الله ونعم الوكيل سبعة آلاف مّرة ثم دعت: اللهم إنّي أسألك باسمك الذي لا إله إلاّ هو الحنّان المنّان أن تجعل لي رأفة وحنانًا ومحبّة في قلب رمضان ابن حواء ومكنّي من ناصيته وعقله ومجامع قلبه، واسقِ بمحبّتي جميع عروقه واجعله طوع يديَّ ومنتهى أمري حتى لا يهنأ له أكل ولا شرب ويراني في جميع أحوالي، أجيبوا يا خدّام هذه الأسماء اقذفوا بقلب رمضان ابن حوّاء، ائتوا طوعًا أو كرهًا بحق أسماء الله تعالى وبحقّ هذه الأسماء الشريفة وما لها عليكم من القوّة والطاعة، الوحا الوحا العجل العجل الساعة الساعة.

* * *

فتحيّة التي رضعت السحر من بزّ أمّها كفرت به، بعد أن ظلّت طيلة ثلاثة أشهر وستّة أيّام تحلم أن يأتي رمضان على صورته كما خلقه الخالق راكعًا متوسّلاً أن تحنّ عليه وتمنّ بنظرة ولمسة ورشفة ولثمة، وقديمًا قالوا ثلاثة أشياء هم خير ما في الدنيا: أكل اللحم، وركوب اللحم، ودخول اللحم في اللحم. وفتحيّة كانت تحلم بلحم رمضان يصل إلى أعمق أعماق مغارتها فيطفئ نارها المستعرة دومًا، والتي كثيرًا ما كانت تؤجّجها وتخمدها

بمداعباتها الذاتيّة متخيّلة رمضان في كل أوضاعه المستحيلة: واقفًا وجالسًا وراكبًا وراجلاً ثم مستلقيًا. ولم تعد تطيق نفسها حتى أنّها أعلنت الحرب على أمها، واتّهمتها بأنّها دجّالة ومشعوذة وأنّها علّمتها ما لا فائدة منه. وبديعة التي لم تفهم ما قالته ابنتها إلاّ بالحدس وحده، قالت إنّ السحر موجود منذ أن خلق الله الأرض ومن عليها حتى أنّه أنزل فيه قرآنًا ، فهل تكفرين بما أنزل الله، ثم أنّه لولاه لما جاءت هي أصلاً من صلب نور ـ ألف رحمة ونور عليه ـ وإنّما علّمتك كل شيء ، وأنت زاد علامك منّي بعلامك لنفسك، شيء واحد لم تتعلّميه، الصبر، بالصبر وحده تنالين ما ترغبين.

فتحيّة صبرت شهرًا إثر آخر حتى أنّها سمعت أنّ رمضان سيكتب كتابه على عروسته بعد أسبوع، تأجّجت النار في جسمها وقلبها وما عادت تعرف الليل من النهار ولا للنوم طعمًا وذبل عودها. رأت بديعة كلّ ذلك فصرخت: البنت ها تروح منّي. واستعادت كلّ ما تعلّمته من سحر وأقفلت على نفسها باب حجرتها مدّة ثلاثة أيّام وهي صائمة عن الزاد، وما إن خرجت في اليوم الرابع حتى تهلّل وجهها فرحًا في وش ابنتها الوحيدة، وقالت لها ابشري، المطلوب حَصَلْ ونِلْنا المراد.

لم تفهم فتحيّة من كلام أمها شيئًا، واليوم يوم فرح رمضان فانكسر فؤادها وأرادت تمضية اليوم خارج بولاق كلّها، فذهبت إلى المستشفى تبيت ليلها هناك. جلست في حجرة الممرّضات وحيدة، يدها على خدّها، وذهبت بأفكارها إلى حيث يجلس

رمضان الآن بجانب عروسته بينما الطبل والزمر يصمّان الآذان.
لكن جلبة شديدة أخرجتها من توهّماتها، وسمعت صوتًا آمرًا يصرخ: جهّزوا غرفة العمليّات بسرعة، ورأت فتحيّة شخصًا ممدّدًا على الترولّلي بطول وعرض وملامح رمضان، لكنّه ليس هو بالتأكيد، هكذا قالت لنفسها. فرمضان في الكوشة الآن بينما هذا الرجل يتلوّى من الزائدة الدوديّة التي قد تنفجر في أيّة لحظة.
وبعد يوم من التأمّل الهادئ في المريض الذي يرقد الآن ممدّدًا فوق سريره بعد عمليّة استمرّت طوال الليل، أخذت تقنع نفسها بأنّه رمضان الممدّد أمامها، وإن هي إلاّ دقائق معدودات حتى تأكّدت أنّه هو نفسه، حين رأت خطيبته وأهلها قدموا للاطمئنان عليه، وأنّ ما حدث قد حدث قبل كتب الكتاب بدقائق، فابتسمت فتحيّة وقد أيقنت أنّ حظّها في صعود منذ الآن.

* * *

٣

بديعة

سمعت بديعة رواية ابنتها عن أحداث تلك الليلة فلم تتعجّب، وقالت لها: أذكّرك بأنّي قلت المطلوب حصل ونلنا المراد، وقديمًا قالوا: كيد النسا غلب كيد الرجال؛ وفي هذا المعنى فإنّي أروي لك حكاية أعجب من العجب، وقد رواها لي الأسطى حمامة النجّار أبو محمود، فإنّه قال:

• حكاية في كيد النسا الذي غلب كيد الرجال

كنّا نسكن في درب طيّاب القريب من شارع كلوت بيه في قلب العتبة الخضراء، وكانت الورشة التي أعمل بها تقع أمام المنزل الذي أسكن فيه أنا وزوجتي، كنّا نحن نشغل الطابق الثاني، أمّا الطابق الأول فكان يسكن فيه رجل وزوجته، الرجل كان ساحرًا شرّيرًا يعمل في الخفاء على السحر الأسود، وكان يفرض إتاوات على أصحاب البيوت والمحلات المجاورة مهدّدًا كل واحد منهم إذا لم يدفع فسوف يسلّط شياطينه عليه فتخسف به الأرض. كان عجوزًا ومكروهًا، بينما زوجته فتاة صغيرة ذات وجه صبوح مليح وعلى عكس زوجها يحبها الجميع لجمال خلقها وخلقتها، وكان الجميع يتعجّب من رضاها بالعيش مع هذا العجوز الشرّير دميم الخلقة والخلق، وهم لا يعرفون السرّ الذي تخفيه الفتاة في صدرها. وذات يوم، قدمت الفتاة إلى زوجتي وجلستا تتسامران، كانت هذه عادتها كلّما خرج زوجها لأذيّة خلق الله، فكانت تأنس لزوجتي وتصاحبها، زوجتي أيضًا تأنس إليها. وكنت مستلقيًا في الحجرة الخلفيّة ممدّدًا على الكنبة فسمعت زوجتي تقول لها: إلاّ قولي لي يا أختي، كيف ترضين بالعيش مع عجوز النحس هذا، وقديمًا قال الشاعر:

إذا شاب رأس المرء أو قلّ ماله   فليس له في ودهن نصيب

وحكي والله أعلم، أنّ عبد الملك بن مروان سأل ليلى الأخيليّة ما الذي تشتهي النساء من الرجال، فقالت: من خدّه كخدّنا وشعره كشعرنا، والشيخ إذا لم يكن سلطانًا أو ذا نعمة فليس له في ودّهن نصيب.

قال الأسطى حمامة: كنت أنصت لحديث زوجتي مندهشًا من سعة معرفتها بأمور الدنيا، وبعد أن كنت مستلقيًا اتّكأت شغوفًا بإتمام حديثها للبنيّة، فأكملت: أقول لك هذا لأنّي أعلم أنّ زوجك ليس به ما يحبّب النساء، فكيف وقعت تلك الوقعة السودا معه؟ أعانك الله على ما بلاك فما زوجك بالشاب حتى تحبّيه، كما أنّني أعلم أنّ البخل والتقتير من طباعه.. فما حكايتك، الله يفتح عليك؟

قالت زوجة الأسطى حمامة: ما انتهيت من قولي حتى رأيت دموعها تسحّ على وجهها. ثم إنّها أجهشت بالبكاء فأخذت أطبطب على ظهرها حتى هدأت وقالت: اعلمي أنّني من عائلة فقيرة مكوّنة من أبي وأمّي وأنا وحيدتهما أنجباني على كبر، وكنّا نسكن في درب القطّة بحي باب الشعريّة، ودخلت المدرسة حتّى وصلت إلى الثانويّة العامّة، وكان لي جار نشأنا معًا وتربّينا معًا، وكنّا لا نفترق ونحن صغيران حتى كبرنا معًا وهو في مثل سنّي فتعلّقنا بعضنا ببعض وعشقني وعشقته، حتى أبي وأمّي أحبّا هذا الفتى وكانا يظنّان أنّنا بمجرّد انتهائنا من الجامعة سوف نتزوّج، ولكن شاءت الأقدار ألاّ يحدث ذلك. كيف؟

صلّي على الحبيب، كان أبي يعمل عتّالاً في السوق، فكان يذهب مبكرًا إلى عمله ولا يعود إلاّ مساء مهدودًا مكدودًا من شدّة التعب، وفي أحد الأيّام، وبينما هو يحمل جوّالاً ثقيلاً مليئًا بالبضائع فوق ظهره داست قدمه قشرة موز كانت مرميّة على الأرض فتزحلق ووقع ووقع الجوّال فوق ظهره فقسمه، ورقد أبي طوال الوقت في المنزل لا يستطيع الحركة، وقد أصبح مشلولاً.
وكان عجوز السوء هذا يعرف أبي منذ زمن، فجاء للسؤال عنه ومواساته، ووقع نظره عليّ فوجدني جميلة وحسد أبي على امتلاك ابنة بهذا الجمال، وهكذا صار يتردّد علينا كل يوم، وكان يمدّ أبي ببعض المال يعينه على مصاعب الحياة، كما يأتي إلينا بالطعام والفاكهة وكل ما نحتاجه، لكنّ المقدّر وقع، فقد مات أبي بعد عدّة أشهر من مرضه وتركنا أنا وأمّي ولا ملجأ لنا سوى الله. وعلى جري عاداته صار العجوز يجيء إلينا أنا وأمّي ويلبّي حاجتنا من طعام وشراب وغيره ممّا تلزمه الحياة، وخطر في بالي أنّ الرجل عينه على أمّي وأنّه يريدها للزواج، فقد كانت جميلة هي أيضًا وتصغره بعشرين سنة، إلاّ أنّه في أحد الأيّام فاتح أمّي في أمر الزواج منّي وهي بدورها فاتحتني، فأخبرتها بحكايتي مع الشاب جاري وكانت تعرفها، وقلت لها إنّني أحبّه كما يحبّني وإنّنا تعاهدنا على الزواج متى تخرّجنا من الجامعة، فوافقتني على رأيي وأخبرت العجوز بما دار بيننا وارتباطي بذلك الشاب. فما كان منه إلاّ أن أضمر الشرّ في نفسه وأقسم أن يعمل على هلاكنا أنا وأمّي وجارنا الشاب الذي أحبّه ويحبّني؛ وبالفعل لم تمضِ إلاّ بضعة أيّام حتّى أصاب أمّي داءٌ عَجِز الأطباءُ عن معالجته

فعافت الطعام والشراب حتى ذبل عودها وماتت ـ رحمها الله رحمة واسعة.

قال الأسطى حمامة: فلمّا بلغت الصبيّة في حكايتها ذكر أمّها أخذت في البكاء، وصارت زوجتي تواسيها وتطبطب عليها حتى هدأت وسكتت مدّة ساعة، ثم استأنفت قائلة: وفي ليلة من ذات الليالي، وبينما كنت نائمة ودمعتي على خدّي من كثرة تفكيري في أبي وأمّي وبيتنا الذي خرب، إذا بي كأنّ سهمًا أطلق فأصاب صدري، وشعرت أنّ روحي راحت، وهاج عقلي وجسدي، فلم أعد أعرف رأسي من قدمي مدّة ساعة زمانيّة ثمّ هدأ كلّ شيء وبعد ساعة أخرى حدث الهيجان نفسه، بل زاد.. حتى أنّني خرجت إلى الشارع هائمة على وجهي لا أدري إلى أين أذهب، ولمّا أفقت من هذا الهيجان وجدت نفسي هنا في هذا البيت مع هذا الرجل، وكلّما حاولت معرفة حالي معه هل هو تزوّجني على سنّة الله ورسوله أم أنّه يعيش معي في الحرام، فأجده ينظر إليّ وتنقلب عيناه إلى جمرتين من نار فيهيج عقلي وجسدي مرّة أخرى، ولا أعرف رأسي من قدمي.. وهكذا.

• حكاية العجوز والقرد

قال الأسطى حمامة أبو محمود: قالت زوجتي أم محمود للصبيّة إنّ حكايتك عجيبة. قالت الصبية: ليست حكايتي بأعجب من حكاية العجوز مع القرد. قالت: وكيف كان ذلك؟ قالت الصبيّة: بينما أنا جالسة ذات يوم في البيت بمفردي أنعي حظّي وبختي، وأتذكّر كيف غدر الزمان بأبي وأمّي وبي فأخذت دموعي تسحّ على خدّي، وتذكّرت أبياتًا من تلك التي كانت أمّي تردّدها:

آه لو كانت قولة آه تبري علّتي وأطيب

لأبات أقول آه يا ريح الحبايب طيب.

وأخذت أبكي ولا أجد من يمسح دمعتي، وبينما أنا كذلك وإذا بالرجل الذي يزعم أنّه زوجي وقد دخل عليّ جارًّا خلفه قردًا مربوطًا بسلسلة وسحبه حتى جاء به أمامي، وقال لي: جئت لك بهذا القرد ليسلّيك. ثم نظر إليّ وقال بسخرية: انظري إليه؟ أليس جميلاً مثلك، أنتما لا تصلحان إلاّ لبعضكما بعضًا. وأخذ يضحك وتركنا أنا والقرد ومضى من أمامنا، كنت خائفة من القرد أوّل الأمر فابتعدت عنه، لكنّي حينما نظرت إليه وجدت وجهه وكأنّه يبتسم لي، ثم أشار إليّ بإصبعه وجعل يضرب على صدره

بقبضة يده أخذت دموعه تبظّ من حبابي عينيه، وكأنّه يريد أن يقول لي شيئًا، ولكن لم أفهم. ولا بد أنّه فهم أنّني لا أفهم إشارته ولا لغته، فقد استسلم وجلس بالقرب منّي ودفن رأسه بين ذراعيه ولم يعد يتحرّك، وفي صباح كل يوم كان زوجي يجيء بالقرد أمامي، ويظلّ يضربه بكرباج مدّة ساعة حتى يدمي جسده والقرد يصرخ ويبكي، حتى إذا ما تعب من ضربه تركه ومضى، والقرد يلوذ بي فيرتمي في حجري ويضع رأسه على صدري وينام بعد أن يمشي من يضربه ويسقيه العذاب كل يوم. . وها أنذا حكيت لك حكايتي من طقطق للسلام عليكم.

قالت بديعة لابنتها فتحيّة: قال راوي هذه الحكاية الأسطى حمامة النجار، أبو محمود: ما إن انتهت الصبيّة من حكايتها وأم محمود زوجتي جالسة أمامها تسمع وتغمغم بكلام المواساة، وأنا جالس في الحجرة الخلفيّة أسمع في غيظ ما قالته وأنا أعرف الفولة ولبّتها، وأخذت أدوّر كلامها في عقلي وألخّص حديثها في نقاط سهل عليّ فهمها. . فالساحر دخل على العائلة بالخراب فمات الأب، ثم بعد ذلك ماتت الأم، والبنت تنتابها حالة هيجان فلا تعرف ساعتها رأسها من قدمها، وهي لا تعرف كيف جاءت إلى هذا المكان، وهل هي زوجته أم أنّه يعاشرها في الحرام! ثمّ ما حكاية القرد هذه أيضًا، ولماذا يتعمّد ضربه أمامها كل يوم، فما الحكمة من ذلك؟

أثارتني كل تلك الأسئلة، وكنت أريد معرفة جواب كل سؤال. وخطر لي أنّ كل تلك الألغاز ما فعلها سوى ذلك الساحر

العجوز، وأنّها لن تحلّ إلاّ بالحكمة وبعلوم الأقلام. وكنت أعرف صاحبًا لي منذ أكثر من ثلاثين سنة كان يشتغل بعلوم السحر، فكان شرّ خلق الله في زمنه، ولم يسلم أحد من أذيّته، ولكنّ الله تاب عليه فنذر نفسه لعمل الخير ووجّه كلّ علمه لمحاربة السحر والفجّار، فقلت أذهب إليه وأعرض عليه قضيّة المرأة.. فلمّا حكيت له حكايتها، قال لي: هل بإمكانك إحضارها هنا هي والقرد لأنظرها بنفسي، فقلت أحاول، واتفقنا على أن أحضرها له هي والقرد في غضون هذا الأسبوع، ولمّا كان زوج الصبيّة لا يتركها إلاّ بمقدار تخليص أشغاله ويرجع يلزق بها، فهي صبيّة صغيرة وجميلة ولا يأمن عليها من مكر الماكرين، وانقطعت عن زيارة زوجتي عدّة أيّام، وبالأمر المقدّر فقد سافر زوجها ذات يوم لقضاء أشغاله في قرية بمحافظة كفر الشيخ على أن يعود في الليلة نفسها. وبمجرّد خروجه طلعت إلى زوجتي كعادتها لتتسلّى معها، فدخلت على المرأتين وعلمت أنّ زوجها على سفر، فقلت أنتهزها فرصة وأعرض عليها الأمر، فقالت لي أخاف أن يطبّ علينا زوجي في أيّة لحظة فأخذت أطمئنها حتى وافقت، واتجهنا جميعًا إلى حيث صاحبي وكان يسكن بالقرب منّا، ولم أنس أن آخذ القرد معنا، وكان المسكين ينتفض فزعًا وقد أدمى المفتري جسده من الضرب.

لمّا وصلنا، دخلنا على الرجل وكان يدعى الشيخ عبد السلام فسلمنا وجلسنا، ثم إنّه أخذ ينظر إلى الفتاة طويلاً ثم قال: اتركونا وحدنا. فخرجت أنا وزوجتي وجلسنا ننتظر في الخارج مدّة ساعة، ثمّ رأينا الفتاة تخرج وبصحبتها القرد، وكانت تضع

يدها في يده والفرح والسرور جعلا وجهها مثل البدر المنوّر، فأقبلنا عليها نريد أن نعرف ماذا حدث بينها وبين الشيخ عبد السلام، فتبسّمت وقالت كل خير إن شاء الله، فهذا الشيخ مبارك وشفائي قد تمّ على يديه. فهنّأناها أنا وزوجتي بالسلامة وانصرفنا جميعًا إلى البيت.

قال أبو محمود راوي هذه القصّة العجيبة وما فيها من حوادث وأمور مدهشة غريبة:

شغلتنا الدنيا بحلوها ومرّها، وانشغلت بعملي في الورشة، وقد نسيت قصّة الصبيّة ولم أعد أراها أنا وزوجتي. فقد انقطعت تمامًا عن زيارتنا رغم أنّنا في منزل واحد، حتى عجوز النحس لم أعد أراه، فكأنّهما تركا المنزل وغادراه إلى حيث لا يعلم أحد.

وفي أحد الأيّام، وبينما أنا أعمل في ورشتي بين عمّالي، إذ سمعنا صرخة عظيمة آتية من ناحية بيتنا المواجه للورشة ثم عاد السكون كما كان، فاندفعت أنا وصبياني إلى الناحية التي جاءت منها الصرخة، فتبيّنّا أنّها آتية من الدور الأرضي حيث تسكن الصبيّة وزوجها الساحر، وكان باب شقّتها مفتوحًا ومواربًا فدخلنا ورأينا ما وقف له شعر رؤوسنا، كانت المرأة مستلقية على ظهرها ونصفها الأسفل عاريًا وقد باعدت ما بين ساقيها، وبينهما، كان يقبع كائن صغير ومشعّر يشبه القرد الواقف أمام السرير ينظر إليها وقد وضع يده على بطنها، وكان حبله السرّي ما زال عالقًا بها، وفي الجهة المقابلة للسرير الذي تنام عليه المرأة كان الرجل العجوز يفترش الأرض وقد فارق الحياة. جاءت زوجتي

وأخرجتنا جميعًا، ثم أخذت في قطع الحبل السرّي لذلك الكائن العجيب وساعدتها على إتمام ولادتها، ثمّ قامت بعمل اللازم من تنظيفها وعمل طعام للنفساء وخلافه.

وقمنا نحن بتغسيل الرجل الميت وتكفينه ودفنه في قرافة الإمام وأقمنا العزاء، فلم يكن له أقرباء ودعونا أن يتغمّده الله برحمته الواسعة، فقد كانت سيرته وحشة وأعماله كلها تغضب المولى عزّ وجل!

ظلّت زوجتي تعاودها وتلبّي جميع طلباتها حتى أتمّت أربعين ليلة، وكان خبر المرأة يتردّد على كل لسان في درب طياب، ولم يكن للناس سيرة سوى كيف أنجبت من زوجها قردًا وكيف علم فطق ومات، وقيل بل أنجبت قردًا لأنها كانت تعاشر القرد الكبير الذي جلبه زوجها، وكنت دائمًا أردّد كلما سألني أحد صحّة خبر المرأة أنّ علم ذلك عند ربّي، وعند المرأة، فهي الوحيدة التي تعرف كل شيء. وفي الليلة الواحدة والأربعين كانت زوجتي قد ذهبت إلى تلك المرأة لتطمئن عليها، فغابت عندها كثيرًا، ولما طلعت وقابلتني كان وجهها متغيّرًا ولونها مخطوفًا وأنفاسها مضطربة، فبادرتها قائلاً: ما الذي حدث حتى تغيّر وجهك هكذا؟ فقالت لي وهي تشيح بيدها: أسكت يا بو محمود، ربّنا أمر بالستر. قلت على ماذا؟ قالت: ربنا عاوز كده، لعنة وصابت الجميع . ثم بعد أن أستردّت أنفاسها، جلست تحكي لي ما سمعته من المرأة.

• حكاية المرأة التي أنجبت قردًا

قالت أم محمود:

بعد أن وضعت جارتنا مولودًا يشبه القرد بل كان قردًا حقيقيًّا، وهو ما تأكّدت منه في الأيّام التي تلت، حيث كنت في كل يوم أدخل عليها لألبّي كل طلباتها، فلم يكن أحد بجانبها يناولها حتى شويّة ميّة، لكنّ الغريب أنّني كنت أجد القرد الكبير لازقًا بجانبها طوال الوقت، فكان يجلس معها على السرير ويبتسم في وجهها ويلاعبها ويعمل مثل البني آدم بالضبط؟ وكان يأخذ ولدها من بين ذراعيها وهي تأمن عليه منه ـ أمر عجيب! ـ ويظل يحادثه بلغة لم أكن أفهم منها شيئًا، فلابدّ وأن تكون لغة قرود. المهمّ، ظللت مواظبة على هذا الأمر حتى أتمّت المرأة أربعين ليلة، كنت أرى خلالها الطفل القرد يكبر ولونه يتغيّر حتى أصبحت ملامحه تشبه تمامًا القرد الكبير، وكأنّها فولة وانقسمت نصفين فتعجّبت، وزاد عجبي حين كنت أشوفها هي والقرد الكبير يعاملان بعضهما معاملة غريبة. من ذلك مثلاً أنّني كنت أجده بجانبها دائمًا على السرير، ورأيتها تعطيه وجهها فيقوم بلحسه وهي كانت بتبوسه وتلعب بأصابعها في شعره.. وهكذا. فلمّا كانت الليلة الواحدة والأربعين تعافت المرأة تمامًا وأصبحت تستطيع الاستغناء عنّي.

قلت لها حمدًا لله على سلامتك، قومي خديلك حمّام وانتري المرض عن بدنك، وها أنا قاعدة جنب المولود حتى تفرغي من أشغالك، فلم تكذّب خبرًا وقامت أخذت حمّامًا وارتدت جلبابًا أسود مقصّبًا محبوكًا على جسدها، فكانت زيّ الفل وجاءت جلست بجانبي وراق بالها وأخذت ولدها في حضنها، ثم جعلت تنظر إليه وساحت دموعها على وجهها وتمتمت تقول: حكمتك يا رب. وأنا كدت أموت شوقًا لمعرفة حكايتها، فانتهزتها فرصة وقلت لها: أحلّفك بضناك لتحكي لي على سرّك، وهو في بير ما لوش قرار. فنظرت إليّ في صمت مدةً ثم قالت: وما الذي تريدين معرفته؟ قلت: حكايتك، وهذا الطفل! كيف جاء هكذا قردًا يشبه القرد الكبير؟

فنظرت إليّ في حسرة، وقالت بعد أن تنهّدت وبظّت دموعها: إعلمي أنّ حكايتي عجيبة، وهي لو كتبت بالإبر على آماق البصر، لصارت عبرة لمن اعتبر. كما كانت تقول زوزو نبيل في الراديو. وما سوف أحكيه لك لا يصدّقه عاقل، لكنّها الحقيقة التي لو سمعتها أنا ما صدّقتها، وهناك شهود على ذلك، هل تذكرين الشيخ الذي ذهبنا إليه أنا وأنت وزوجك أبو محمود. قلت نعم، الشيخ عبد السلام. قالت وهل تذكرين أنّه عندما رآني أنا والقرد أمركما بالخروج. قلت نعم. قالت: لمّا طلب منكم الشيخ عبد السلام الخروج، بقيت أنا والقرد والشيخ وحدنا، فقال لي اقتربي يا بنتي منّي فاقتربت فوضع يده على رأسي وأخذ يتمتم بكلمات، وإذا بشيء ينزل من سقف الحجرة ويقع على الأرض وهو يتلوّى، فلمّا حقّقت النظر فيه رأيته قرموط سمك، تناوله الشيخ بيده وأخرج سكّينًا فصل بها رأس القرموط فهمدت حركته، وأراني

كتابة كانت على جلد القرموط، قال: عمل لك زوجك عملاً بالهياج على جلد هذا القرموط وأطلقه في الماء، وكلّما تحرّك القرموط جاءك الهيجان، والآن قد بطل عمله ورجعت كما كنت. ثم قال: أمّا هذا القرد فحاله حال. ولابدّ أنّك تعرفينه حقّ المعرفة، ثم إنّه أحضر طاسة ملآنة بالماء وقرأ عليها ثم رماها في وجه القرد وهو يقول: إذا كنت إنسيًّا فارجع إلى صورتك التي خلقك الله عليها، وإذا بالقرد ينتفض شابًّا جميلاً، وكان هو الشاب جاري الذي أحببته وأحبّني فعانقني وعانقته في شوق ولهفة، وهنّأته على السلامة وجلسنا نتحادث مدّة ساعة، ثم إنّني انتحيت بالشيخ ركنًا وقلت له: ها أنت ذا ترى كيف فعل زوجي الشرّير بسحره فسحرني وسحر من أحب، وكما أنّه قتل أبي وأمّي فلابدّ أنّه قاتلي في يوم ما، وأنا أريد أن أعمل عملاً يخلّصنا من شرّه فهل توافق يا سيدنا. قال الشيخ: مريني يا بنتي فقلت لا تخبر أحدًا بما رأيت وسمعت ولتجعل هذا سرًّا بيننا، كما أنّني أريد منك أن ترجع هذا الشاب إلى صورة القرد مرّة أخرى، حتى لا يعرف زوجي أنّنا كشفنا سرّه، وأريد منك أيضًا أن تعلّمني كلمات إذا قلتها عاد الشاب إلى صورته الأولى كما فعلت أنت، ففعل الشيخ كما أمرت وخرجنا أنا والقرد كما رأيتمونا وذهبنا إلى بيتنا، وأنا أقسمت أن أفضح عجوز السوء هذا فضيحة بجلاجل، فكنت في كل يوم وحين يخرج أقوم أنا وأستوثق من خروجه وأغلق الباب جيّدًا، ثم أحضر طاسة ملآنة بالماء وأتلو عليها الكلمات التي علّمها لي الشيخ عبد السلام، ثم أرميها على القرد فيعود إلى صورته الأصليّة ونظلّ في مهارشة ومداعبة وبوس وعناق حتى نشبع من بعضنا ونقضي غرضنا، وقبل أن يأتي زوجي

أكون قد رددت الشاب إلى حالة القرد، وقد بقينا على هذه الحالة مدّة من الزمن وطابت لنا الحياة، إلى أن كان ذات يوم وكنت نائمة، وزوجي في الخارج لبعض الأشغال، وصاحبي الذي على صورة قرد جلس بجانبي على السرير وأخذ يتأمّل جسدي وأنا نائمة شبه عارية فاشتدّت عليه غلمته، فلم ينتظر حتى أصحو وأردّه بشرًا سويًّا، بل قام على حيله وأولجه فيّ فلمّا أحسست به لم أدرِ أأنا في يقظة أم في منام، وصار يرهز حتى أفرغنا بلذة عجيبة، وبالأمر المقدّر فقد انطبعت صورته على ما هو عليه في رحمي وعلقت منه في تلك اللحظة، ومرّت تسعة أشهر من تلك الليلة حتى جاءني الطلق كما يشاء خالق الخلق، فولدت هذا القرد الذي يشبه أباه تمام الشبه ـ وقديمًا قالوا من شابه أباه فما ظلم. وحين دخل عليّ زوجي ووجد الطفل القرد بين ساقي ووجد أباه بجانبي على السرير عرف أنّ حيلته انكشفت، وأنّه افتضح، فلم يتحمّل وطق مات، وهذه هي حكايتي دون زيادة أو نقصان.

قالت بديعة لفتحيّة: حكيت لك هذه الحكاية لتعرفي أنّ كيد النسا غلب كيد الرجال، ورمضان الآن بين يديك فافعلي به ما شئت.. وعقلك في رأسك تعرفي خلاصك.

فتحيّة فكّرت فيما قالته أمّها وقالت: كنت أحتاج إتر رمضان، رمضان جاء كلّه وأصبح في يديَّ أفعل به ما أشاء. فتحيّة أخذت شنطة ملأتها من هدومها وخرجت من بيتها إلى المستشفى وأقامت هناك في حجرة الممرّضات، وبدأت تأخذ نوباتشيات زميلاتها، وجعلت عينها على رمضان أربعًا وعشرين ساعة لا تغفل ولا تنام، وكانت تتسحّب في الليل وتمشي بتمهُّل حتى تصل

لسرير رمضان وتقترب منه وهو نائم وتشمّ رائحة جسده الملفوف في البيجامة، وحين تغفل عينها غصبًا عنها وهي جالسة على الكرسي قرب سريره، فرائحته تملأ منامها فتكاد تحسد نفسها من حبّ رمضان وحبّ رائحته.. وعند الصباح الباكر لكزت فتحيّة رمضان في جنبه ففتح عينيه نصف فتحة، فقالت له وابتسامتها تبلع وجهها: صباح الفل، قم بسرعة، خذلك حمام والجو رايق قبل ميعاد الزيارة، ثم فتحت الكومودينو الذي على يمينه وأخرجت غياراته الداخليّة، فانكسف وضحكت وناولته إيّاها مع بيجامة نظيفة، وأسندته حتى باب الحمام، وقالت له إحذر من أيّة نقطة ميّة تيجي على الجرح. استحم رمضان براحته، وكان خائفًا أن يلط الجرح، وبعد انتهائه ارتدى هدومه الداخليّة ثم جاكيت البيجامة والبنطلون، وهو لا يدري أنّه ارتدى حجابين واحدًا للمحبّة والثاني للكره والفرقة، سهرت عليهما فتحيّة طوال الليل وأخذت بنطلون بيجامته، فكّت التكّة وبرمت الورقتين وأدخلتهما داخل الكمر وخاطت عليها مرّة أخرى. وحين خرج من الحمام ووقعت عينه عليها نظر إليها بعين محبّ، وأحبّ سماع صوتها وهي تتكلّم ورؤية جسدها يترجرج أمامه في غدوها ورواحها. ولمّا حان موعد الزيارة جاءت خطيبته أحسّ بنفرة في قلبه، وتساءل بينه وبين نفسه هل عميت عيناه حتى يقع على جدور رقبته هكذا، وحمد الله أنّ زائدته الدوديّة أنقذته في الوقت المناسب. وفتحيّة! آه.. يا فتحيّة، شعشع حبّها داخله فملأ كل كيانه، وكم يتمنّى الآن ألاّ يشفى من جرحه حتى يظلّ بجانبها في المستشفى الذي لم تعد تغادره لتكون بقربه، وتشمّ رائحته.. رائحة رمضان.

* * *

حرب السحرة

عشت تلك الأيّام العصيبة من عام ألف وتسعمائة وثلاثة وسبعين، كانت بدايتها، بالتحديد في شهر يناير، وبالتحديد أكثر، في الثالث عشر منه حين أعلنت الحرب الكبرى بين نجيّة وأم وجدي من ناحية وبديعة وفتحيّة ومن بعد حليفتهما أم جمال ـ أمي. فكيف دخلت أمي تلك الحرب؟ وهل كان ذلك بإرادتها وحدها؟ أم زُجّ بها في حرب لا ناقة لها فيها ولا جمل؟ هذا ما ستعرفونه إذا ما تبعتموني في الصفحات التالية ـ فكونوا معي.

خرج رمضان من المستشفى سليمًا معافى وفي يده فتحيّة التي أقسم ألاّ يخرج إلاّ وهي في يده وعلى مشهد من الجميع، وبعد عدّة أيّام كتب كتابه عليها دون شوشرة، فقد كان يعرف أنّ خطيبته السابقة لن تسكت لا هي ولا أهلها؛ وهو ما حدث بالفعل، حين أعلنت جدّتها نجيّة أنّ هناك ملعوبًا وراء ما حدث، وأنّ البنت معمول لها عمل أكيد. وفي صباح يوم جمعة اكتشفت أم وجدي حجابًا مدسوسًا في خرم في الجدار، ولمّا فتحته وجدته مكتوبًا بالسريانيّة وبالمداد الأحمر، وبالحدس وحده عرفت أنّه عُمل بالكره لابنتها منال. وباستعراض للموقف تمّ حصر قائمة المشبوه فيهنّ في اثنتين لا ثالثة لهما، بديعة، وأم جمال ـ أمي. ولمّا

كانت بديعة لا يعرفونها إلاّ من بعيد لبعيد، ولم تكن هناك خصومة بينهنّ من قبل، فقد تمّ استبعادها لتتركّز شكوكهنّ في أمّ جمال، فما علاقة أمي بالأمر؟ أمي التي جاءت من «كوم الضبع» باللّيل سكنت في حارة علي أبو حمد ببولاق الدكرور، التي كانت وقتها عدّة بيوت متناثرة والباقي غيطان قمح وذرة، كانت ابنة ستة عشر بينما أبي تعدّى الأربعين وأنجب ثمانية أبناء من عمّة أمي قبل أن تموت وتتركهم أطفالاً يحتاجون من يربّيهم. وفي زمن الجهل والفقر، فإنّ العادة والعرف والتقاليد، تأخذ صفة القانون الملزم لكلّ الأطراف، وهم ـ أي الأهل، لم يجدوا أفضل من أمي كي تربّي أبناء عمتها الثمانية، والذين كان بعضهم في مثل سنّها تقريبًا. انظر على سبيل المثال لا الحصر: نجدي، وهو أكبر الأبناء سنًّا وأحسنهم خلقًا سوف يتوفّى في عزّ شبابه في العام السابع والستّين تاركًا ابنًا يتكوّن في بطن أمه. أيضًا توحيدة، كذلك نصحي، الآخرون كانوا أطفالاً. المهمّ، أنجبت أمي أربعة هم على التوالي: أختي الكبرى نجيبة، ثم أنا جمال الملقّب بخيري عبد الجواد، وبعدي أخي سيف الإسلام، ثم أختي الصغرى نجوى. كان أبي يسمّينا الترقيدة التانية، وكانت نجيبة متفوّقة في المدرسة إلى درجة أزعجت عمّي وأولاد عمّي، وجاءت الضربة القاضية حين نجحت نجيبة في الثانوية العامّة. لحظتها لم تتمالك أمّي نفسها فحزمت وسطها ووقفت ترقص وتغني على الملأ: من الثانوية للكلّيّة، والمجموع قرّب على الميّة، أغنية كانت تغنّيها ليلى نظمي وقتها. لم تكتفِ أمّي بذلك، بل تمادت حتى أنّها اشترت ساعة «جوفيال» ياباني أصلي،

وأعطتها هديّة لابنتها نجيبة. ولم تنجح الوساطة بين أبناء العائلة الواحدة في جعل نار الغيرة تخمد، بل زادتها اشتعالاً حتى اندلعت الحرب الخفيّة بين النسوان ذات يوم. فقد استعان الفريقان بكل من لديه خبرة بفنون السحر سواء في بولاق الدكرور أو في كوم الضبع، وكان من نتائج تلك الحرب أن انتهت بكارثة نكسة الخامس من يونيو ووفاة أخي الأكبر، وأن يعيش وجدي ابن عمّي عاجزًا إلى الأبد بعد أن طارت رجله بفعل أحد السحرة الأشرار، وليس بفعل «الترام» كما قيل وقتها.

وحين أعلنت الحرب للمرّة الثانية، كان كل من الفريقين لديه أسبابه التاريخيّة في شنّها، حرب وبينما الفريقان ـ وقد استعانا بكلّ شياطين الجان ـ يتطاحنان، تزوّجت فتحيّة ورمضان في هدوء دون الالتفات لحرب لا تعنيهما في شيء. وعندما اندلعت حرب السادس من أكتوبر، كانت فتحيّة حاملاً في شهرها الثاني، والفريقان أصابهما الإعياء من حرب لا طائل من ورائها، استنزفت كل مواردهما، لذا فقد اتخذا قرارًا بإعلان الهدنة وتوجيه كل شياطينهما إلى المجهود الحربي.

* * *

أولاد صديقة

صديقة أنجبت أربعة صبيان وبنتًا واحدة، وابنها البكر نصر طلع فرع وعضلاته قسّمت جسمه، كان يحبّ المصاريف ولم ينفع في مدارس، فعاش حياة صياعة مع أولاد الحواري وبدأ يشرب البانجو سواء في سجائر أو في حجر الجوزة، ولمّا لم يجد ما يشرب به ويشبرق على أصحابه اندار على أمه صديقة، وأخذ يسرق من ورائها مصروف البيت حتى صرفه كلّه، ثم بدأ يسرق من أبيه فعرف، وبدأ يراقبه حتى أمسكه ذات يوم ومحفظته في يده، ضربه بالقلم على وجهه وطرده من بيته، فأقام عند خالته بديعة وابنة خالته فتحيّة وزوجها رمضان الذي بعد عشرة أيّام، فاتح حماته في اليوم الحادي عشر: الولد كبير مثل الفلق نايم طول النهار ولا شغلة ولا مشغلة، وبنتك مش عارفة تتحرّك براحتها في بيتها، ودا راجل برضة ويجوز لها، يعني كدا عيب! بديعة ردّت على رمضان بعد أن صعبت عليها نفسها، وقالت: أوّلا دا مش غريب يا رمضان يا بني، ابن أختي هو ابني، يعني عاوزني أطرد لحمي. وبينها وبينه قالت له" يا بني ما يرضيش ربّنا قعدتك كدا لا شغلة ولا مشغلة، أنا أشيلك فوق رأسي بس قوم أجري على أكل عيشك وربنا يفتحها في وشك يا نصر يا ابن صديقة.

نصر لم يتعلّم أيّ صنعة تنفعه وانسدّت الدنيا في وجهه، فبدأ

يتاجر في البانجو على الضيّق أوّل الأمر، عمل لحساب زعبولا تاجر الحشيش الشهير في بولاق الدكرور، والذي قبض عليه وحكم بالمؤبد قضى نصفها في السجن وخرج في عفو أكتوبر، فوجد الحشيش تجارته راحت عليها ولم يعد موجودًا بسهولة، وإذا وجد فسعره ارتفع جدًّا، وكان البديل أمامه هو البانجو فكان يأخذ العيال الصغيرة يسرّحهم لحسابه، ومن بينهم نصر ابن صديقة الذي ضرب عصفورين بحجر واحد: يبيع ويكسب، ويعمّر مزاجه بشرب البانجو، ولم تسأل صديقة ولا زوجها محمد من أين يأتي نصر بالفلوس، كان همّها أن يرجع إلى البيت طالما الجنيه جرى في يده، ورجع نصر إلى بيته في حارة علي أبو حمد وأصبح رجلاً يقول الكلمة بكلمتها والجميع يتمنّون رضاه.

منصور أخو نصر طلع عكسه تمامًا، خرج من سنة رابعة وهو لا يعرف القراءة والكتابة، وكان يختفي باليوم واليومين ولا يعرف عنه أحد شيئًا، ثم يظهر فجأة في البيت كأنّه ما غاب عنه؛ وإذا سأله أبوه أو أمه أين كان، يشوّح بيده ويسبّ لهما الدين ويترك البيت مرّة أخرى. وحده كان يعرف طريقه جيّدًا فيلتم على أولاد الشوارع المجاورة، أصحابه الصيّع، من سنّه تقريبًا، ويذهبون يتسوّلون بهدومهم المهربدة في حتت بعيدة لا يعرفهم فيها أحد، وإذا لم يجدوا من يُشحذهم، كانوا يلبدون في أنصاف الليالي ويسرقون أيّ شيء يجدونه أمامهم: تسجيل عربة، فردة كاوتش، شوال فول حراتي أو مانجة يبيعونها ويشترون «الكلّة والبنزين» ليقوموا بشمّها. وآخر مرّة سرق فيها أمسكته دوريّة شرطة متلبّسًا، وفي يده تسجيل عربة بعد منتصف الليل بساعة، وحوّلته على شرطة الأحداث وطلع

بعد ثلاثة شهور. علم أبوه فضربه علقة موت، وقال لصديقة زوجته عاجبك كده، هذه تربيتك! ونظرت إليه صديقة من تحت لتحت وضربت كفوف الأيادي بعضها في بعض وطوحتها في وجهه، وقالت اسم الله على تربيتك يا خويا، وإن كنتو نسيتو اللي جرى هاتو الدفاتر تنقرا. سكت محمد عبدون وهو يعلم أنّه لن يسلم من لسانها، كما أنّها ماسكة عليه زلّة من أيّام الشريط المسجّل عليه صوته في حضن صفاء، لذا فقد أخذها من قصيرها وطلع على قهوة في شارع همفرس، وطلب واحد شاي سكّر زيادة وحجر معسّل، وضيّق بين عينيه عاقدًا جبهته متفكّرًا في حاله وحسبها بالورقة والقلم: عنده ستّون سنة إلاّ شهرين وعلى وشك المعاش، لكن صحته بمب، ومن يره لا يعطِهِ أكثر من أربعين سنة، وليس في شعره الأسود كلّه شعرة واحدة بيضاء، وصديقة عجزت قبله ووجهها كرمش، وفضحته في كل حتّة. . أكثر من واحد قال له مراتك بتسرق من الخضاريّة في شارع السوق، داء وتحكّم فيها هي وبنتها، ونصر ابنه البكر تاجر بانجو، والواد منصور احترف الصياعة ويشم «كلّة وبنزين» وحرامي، الولدان الباقيان مازالا صغيرين، يعني هيطلعوا إيه؟ هأو!

وفكّر في صفاء، عمري ما هاشوف زيّ أيّامك يا صفاء، لو كان حفني طلّقها كنت اتجوّزتها وطلّقت العكرة صديقة. وحفني عجز وشكله أصبح زي اللي عنده مئة سنة. ياه! الزمن ما سبش حدّ في حاله، إلاّ صفاء، السنون تزيدها جمالاً.

محمد شرب ستّ حجارة معسّل وطلب قهوة على الريحة، وهفّت عليه سيرة الأموات، فأخذ يترحّم على نور وحماته أم

حفني وعلى أبيه وأمّه، ودمعت عيناه فمسحهما بكمّ قميصه وقال اللّهم اجعله خيرًا، أنا هاموت ولاّ إيه، وأحسّ في تلك اللحظة بأنّه أكثر شفافيّة من أيّ وقت مضى فأحبّ كل الناس، حتى الذين أساؤوا إليه في يوم ما، وصعبت عليه نفسه لأنّه ما عرف يربّي، وفكّر أنّه حين يخرج على المعاش سيأخذ قرشين كويسين ممكن يفتح بهم محلاّت ويتاجر هو وأولاده في أيّ شيء، المهمّ يلمّهم من حياة الصياعة والضياع. عند هذا الحدّ هبّ واقفًا ودفع الحساب واتجه إلى البيت، كان حفني جالسًا على الباب واضعًا رجلاً على أخرى ويدخّن سيجارة ، وصفاء كانت جالسة تحت أقدام الكرسي الجالس عليه حفني، وحفني بنظّارته الطبّيّة وشعر رأسه الأبيض ظهر كأنّ في عمر المائة سنة، وصفاء بدا جسمها المدملك الملفوف في جلبابها الأسود المحبّك يشعّ بياضًا وسحرًا فكأنّها ابنته. وأحسّ محمد عبدون بالألم يعتصر قلبه عليه وعليها، وتأسّف أنّه أغضب حفني ذات يوم وخانه مع امرأته، وغمغم لنفسه: أنا مالي النهاردة، بايني هاموت. ودخلت صفاء وأحضرت له كرسيًا فجلس جنب حفني الذي عزم عليه بسيجارة فأخذها وولّعها، وطلب حفني من صفاء عمل شاي له ولمحمد، وفي تلك اللحظة سمع الجميع صوت هيصة آتية من بعيد، أصوات صراخ وزعيق أخذت تقترب شيئًا فشيئًا حتى أصبحت على ناصية حارة علي أبو حمد، وكان الجميع يتبيّن ما يحدث الآن أمام أعينهم: زفّة جامدة، رجال ونساء وأطفال تتقدّمهم واحدة، تبيّنوا أنّها صديقة التي كانت تتلفّت خلفها وتشوح بيدها تبعد الناس عنها، لكنّ الناس كانوا يمشون وراءها وهم يهتفون ويشيرون إليها: الحرامية أهي.. أ.. هي.

القسم الثالث

١

محمد عبدون مات قبل أن يطلع على المعاش بشهر واحد، وتحقّق لصديقة حلم حياتها في أن تصبح أرملة ـ هل يُصدّق؟ كانت فعلاً تحلم بحياة ما بعد محمد عبدون، من أين أتاها هذا اليقين؟ هي لا تدري! فقد كان من الممكن أن تموت قبله، لكن هذا ما لم يتحقّق. وجاءت اللحظة التي تعيش فيها حياتها كأرملة متحقّقة. قبل موته تخيّلت اللّحظة وعاشت أحاسيس أرملة توفي زوجها فجأة وترك لها أولاده، تخيّلت أنّها سوف تحسّ بالحزن وفي جنازته تشيل النيلة وتشلشل بمنديل أسود، ويمكن تشقّ جلابيتها أيضًا، وربّما يبحّ صوتها من العويل والصراخ، والغريب أنّها استعدّت لهذه اللحظة بأكثر ممّا كانت تظنّ، فقد تعلّمت العديد على أيدي امرأة محترفة كانت تؤجر في مثل هذه المناسبات، وكان كل تركيزها على عديد من مات زوجها وترك لها أطفالاً، مع التركيز أن تستقبل لحظة موته بطريقتين، الطريقة الأولى: إذا كانت نائمة ويجيء من يخبرها بنبأ موته، فإنّها سوف تهبّ فزعة من نومها وتكون في حالة ذهول حين تسمع الخبر، لكنّها ما كانت تعرف كيف تنهي هذه الحالة. لذا فقد كانت الطريقة الثانية هي الأقرب للحظة الاستعراض الكبرى: إذا مات

خارج المنزل وجاء محمولاً على الأيدي فسوف تستقبل الخبر مبلمة لا تنطق، وتبدو ملامح وجهها جامدة بينما عيناها محملقتان في الجثّة الممدّدة أمامها، والناس يلتفّون حولها وكأنّ الأمر لا يعنيها بتاتًا، وسوف ينتبه من حولها لحالتها ويرجعونها لتأثير الصدمة فيحثّونها على البكاء خوفًا عليها من هذا الصمت المميت، وربما ضربها أحدهم بكف يده على صدغها كي يساعدها على البكاء. وهذه الحالة أيضًا لا تعرف كيف تنهيها إلاّ بتعديل بسيط، وهو أنّها حين تهمّ بإيقاظه في الصباح تجده ميتًا، عندئذ تجأر بالصوت العالي فيلتمّ الأهل والجيران وتظلّ هي تلطم الخدّين حتى تقع مغشيًّا عليها، وهو ما حدث بالفعل. كان قبل موته بيوم واحد يجلس في مقهى في شارع همفرس، ثمّ رأته جالسًا مع أخيها حفني وامرأته العاهرة أم عين باكسة يشربون الشاي، حين كانت راجعة من شارع همفرس والعيال ملمومون حواليها يجرّسونها، هو الذي طردهم وطيّب خاطرها وطلع وراءها، كان وجهه مزرقًّا ولونه مخطوفًا. جلس على الكنبة وأخذها من يدها، أجلسها بجانبه، لم يتكلّم معها في الفضيحة أمام الخلق وجرسة العيال لها، لا، ولم يقل لها أيّ شيء، فقط نظر إليها وعيناه مندّتان بالدموع. تطلّعت إليه وتساءلت: فيه إيه يا راجل، مالك؟ هزّ كتفيه، مش عارف، النهارده أنا مش عارف مالي! زي اللّي بيودع من الدنيا، ثمّ تهدّج صوته: صديقة، عاوزك تسامحيني على أيّ حاجة غلط عملتها معاكِ. همّت بالوقوف فأمسك ذراعها يشدّها ناحيته، وتصوّرته يغازلها، فنترت يدها وقالت بدلال: فيه إيه يا راجل، أنت جرالك إيه النهار ده!

العيال بره صاحيين. تركته ودخلت المطبخ، جهّزت له العشاء، تعشّى وحده وطلع على السرير، ومدّد بدنه واتكأ بكوعه على المخدّة، انتظر عياله أن يأتوا من الخارج، لكنّه نام حتى ظهر اليوم التالي على غير عادته.. وظنّت هي أنّه أخذ إجازة من شغله، واقتربت منه تنغزه في جنبه ليصحو، ولم تكن أدركت بعد أنّه خانها للمرّة الثانية ومات.

٢

بعد الجنازة، كان عليها عبء ترتيب البيت من الداخل، لكنّ الشيء الذي وقفت عنده كثيرًا وحيّرها في الوقت نفسه، هو كيف كانت جنازة زوجها مهيبة ذات جلال ورهبة تليق بواحد تقيّ ميت، حتى أنّها، وهي التي لم تتأثّر بموته كثيرًا، تأثّرت بجنازته إلى حدّ البكاء. كانت تعلم أنّه ـ رحمة الله عليه ـ ذيله نجس. هي على يقين من ذلك وعن تجربة، فحين تعرّف عليها، كان يتحيّن الفرص للاختلاء بها فيظلّ يقبّلها، وبأصابعه يفرك حلمتيها المنتصبتين ويمتصهما حتى يشبع، وما كان ليشبع أبدًا، ففي إحدى المرّات تمادى وخلع لباسها لمّا رأى أنّها ساحت بين يديه، وما عادت تعرف رأسها من رجلها، فصرخت متوسّلة أن يريحها ،لكنّه أبدًا ما سمح لنفسه أن يفضّ بكارتها، وكانت له أسبابه الوجيهة: إنّنا سوف نتزوّج ـ كان يقول ـ فلنترك شيئًا لليلة الدخلة، شيئًا جديدًا نتشوّق لأن نفعله ويكون تذكارًا لتلك الليلة. كانت تعرف أنّه يلعب بذيله برّا البيت وجوّاه، وحين ضبطته مع زوجة أخيها، كانت على يقين من أنّها لم تكن المرّة الأولى. كان عزاءها الآن أنّه لن يفعل هذا الشيء بعد ذلك أبدًا، فالأموات لا يخونون. أربكها هذا الحشد من المشيّعين، كل زملائه أتوا،

زملاء العمل، وزملاءالمقهى الذي كان يجلس فيه، ومن الحتّة والحارة، كذلك أقرباء له لم ترهم من قبل، ناس جاءت تسدّ عين الشمس، حزانى على موته، وسبحان الله، كانت خرجته سهلة ميسّرة، تصريح الدفن جاء في التاسعة صباحًا، أوّل ما فتحت الوحدة الصحيّة في شارع السوق، من جاء به؟ هي لا تدري! أصل حبايبه كانوا أكثر من أنّ الواحد يعدّهم، كان الكل يجري ويتسابق في تجهيز الميت، التصريح طلع، والكفن الشرعي جاء، المغسّل أحضر معه النعش وخشبة الغسل والحنوط، الكراسي رصّت في الشارع وأمام البيت، كانت تجلس مع النسوان في الداخل حين سمعت من يسأل عنها فخرجت. تقدّم منها رجل لم تره من قبل، دسّ في يدها مظروفًا وقال لها شدّي حيلك، دي خرجة المرحوم، الشغل صرفها له، وكمان فيه أوتوبيس للّي عاوز يمشي ورا المرحوم. طلع المرحوم محمولاً على أعناق الرجال من بيته، وصار النعش ومن خلفه الرجال ثم النساء في صمت مهيب، بعد أن نهيت النساء عن الصراخ أو العديد، ولم يعد يسمع سوى صوت: «وحّدوه» بين لحظة وأخرى، وتحدّد مسار الجنازة تلقائيًا بالمرور على أقرب مسجد في الطريق، فخرجوا من الحارة إلى شارع الفرن مرورًا بشارع همفرس، صلّوا عليه صلاة الجنازة بعد أداء صلاة الظهر وخرج الجميع في طريقهم إلى قرافة الإمام حيث مدافن العائلة.

٣

خيّم مساء كئيب على منزل محمد عبدون الميت، ووقف ابنه الكبير نصر في الشارع يشرف على عمّال الفراشة وهم ينصبون الصيوان ويعلّقون عناقيد الإضاءة، وجاء بثلاثة مقرئين تناوبوا قراءة القرآن حتى ساعة متأخّرة من الليل، وطلّت صديقة من الشرفة فرأت الناس تدخل الصيوان جماعة جماعة، معلّمين كبار بشنبات أصحاب نصر، وشباب صيّع أصحاب أولادها، ونصر لبس جلاّبية أبيه الصوف وعباءته، وكبر فجأة ووقف في أوّل الصفّ يأخذ العزاء، وكلّ ربع ساعة يترك مكانه ويدخل الصيوان يلفّ على الناس رافعًا يده بالتحيّة ومناديًا في صوت تعمّد أن يكون قويًّا غليظًا: شكر الله سعيكم. وعازمًا عليهم بكلّ أنواع السجائر المستورد والمحلّي، ولولا كسوفه لعزم عليهم أيضًا بالبانجو، وفي آخر الليل، وبينما عمّال الفراشة يلمّون حاجاتهم، جلس هو وأصحابه على جنب يدخّنون البانجو في السجائر باطمئنان.

كانت الحجرة الضيّقة مكتظّة بالنساء يجلسن متّشحات بلون الحزن حول صديقة، ولم يكن بينهنّ سوى رجل واحد: حفني، وقد التصقت به زوجته صفاء، وانزوت بديعة في ركن الحجرة هي وابنتها فتحيّة، بينما كانت محاسن تحملق في الجميع. الأرض مازالت مبلولة والجدران بطرطشات ماء الغسل، ورائحة حنوط

المتوفى لم تغادر المكان بعد. نظرت محاسن إلى صفاء التي بدا على وجهها الحزن وتساءلت: فيم تفكّر الآن يا ترى؟ وتبسّمت وهمست: تلاقي القحبة تفكّر فيما كان يفعله معها! الله يجحمه مطرح ما راح. ثمّ نظرت إلى أخيها الذي بدا حزينًا أيضًا وسألت نفسها: هل كان حفني يتمنّى موت محمد عبدون بعد أن داس على عرضه ومرمغ اسمه في الوحل؟

في الصباح الباكر، صحا جميع من في البيت، وأخذت صديقة تعطي تعليمات للجميع بخصوص عزاء النسوان في الشارع، فيجب أن يتمّ كنسه ورشّه، ثمّ يأتي بعد ذلك فرش الملاءات والأكلمة والحصر، ووضع كنبة ملاصقة لحائط البيت لتجلس عليها المقرئة الشيخة رشيدة، التي يجب أن يذهب أحدهم لإحضارها من بيتها لأنّها كفيفة، وإلى محلّ الفراشة يذهب نصر لإحضار ماكينة الصوت والميكروفون، وفور فرش الملاءات بدأت النساء في الحضور وحدانًا وجماعات، وهنّ يرتدين السواد ويعلنَّ عن حضورهن بإطلاق أصواتهنّ فور دخولهن من الحارة، وتولّت الردّ عليهنّ محاسن بإطلاق أصوات مماثلة، وحين اطمأنّت صفاء أنّ عدد النساء يكفي لبدء الاحتفال، أخذها الوجد فأخذت تولول وتغنّي عديدًا حزينًا بين دهشة جميع من كانوا يعرفون حكايتها: سرّي وسرّك يا خويا في طبق صيني... والطبق انكسر يا أعز من عيني. سرّي وسرّك يا خويا في طبق فخار... والطبق انكسر واتفرّقت الأسرار. كان العويل والصراخ يعلوان بين مقطع وآخر، ممّا شجع صفاء على الاستمرار: باب اللحود مش زي باب البيت... كتفك عريض وازّاي خشيت. هم يضحك وهم يبكي. قالت صديقة لنفسها

وهي توشك على الضحك وتحوش نفسها بالعافية، وهمست لنفسها: يا مرة يا لبوة. المفروض تقولي: رحت القرافة ياختي لقيت حجر مبروم، فكّر عليَّ ياختي بتاع المرحوم. وانفلتت ضحكة أحسّت أنّ الجميع سمعها فتلفّتت حولها، لكن أحدًا لم يأخذ باله.

٤

بديعة طلع لها نور في المنام، وعلى مدى ثلاث ليال متّصلة، كان يظهر لابسًا أبيض في أبيض ووجهه يكاد يفرّ منه الدم، والنور يسطع منه وحواليه. لم يقل سوى كلمة واحدة: انقليني من تربتي يا بديعة. لكن كيف وأين ولماذا؟ لا تدري، وهي التي دفنته بيديها في قرافة أهله في الإمام الشافعي. حارت في أمرها، هل تخبرهم برغبة ابنهم في نقل رفاته؟ سوف يتّهمونها بالخرف، فما الداعي لنقله وقد مرّ على رحيله كلّ تلك السنوات.. ثمّ أصلاً هل بقي منه شيء لم يأكله الدود.

بديعة أخبرت ابنتها بزيارة أبيها لها في المنام، فتحيّة تعجّبت وقالت: طب ما قالش على سبب نقله؟ هزّت بديعة رأسها فأكملت فتحيّة طب وننقله فين؟ ما سألتهوش يامه، يا بنتي نور أبوكِ ها يتحكّم فينا في حياته ومماته، يعني الأموات مش سايبينا في حالنا. وبينها وبين نفسها غمغمت: رحمة ونور، باينك في الجنّة ونعيمها، ولا على بالك غلب الدنيا وقرفها، محمد عبدون جالك، شفته؟ طب وهاتشوفه فين، أنت في الجنّة ونعيمها، وهو في النار وبئس القرار بعد عملتو السودا مع صفاء المنيوكة اللّي خلّت رقابنا زي السمسمة في الحتّة. ثم إنّها خطر لها خاطر

فجرت إلى الدولاب فتحته وأخرجت علبة من الخشب المطعّم بالصدف مقفولة بقفل صغير، فتحته، وأخرجت منها قطعة قماش مطويّة ومعطّرة ومربوطة بشريط أسود وقد حال لونها، لم تكن سوى لباس نور الذي سرقته من بيته لمّا أرادت أن تسحر له. فَرَدته أمامها ومالت برأسها عليه وأخذت تتشمّمه، وتذكّرت الأيّام الخوالي، وحنّت إلى التراب الذي كان يمشي عليه نور ورائحة جسمه، وشمخته حين كان يهلّ عليها. ولأنّها كانت تعرف كيف تستدعيه، حتى ولو كان ميتًا، فقد استحمّت وتوضّأت وفرشت قطعته الأخيرة تحتها ونامت، وهي على يقين من أنّه سوف يحضر لتعرف منه بالضبط الحكاية.

٥

عشرون عامًا مرّت على موت نور، وأنا كبرت وبدأت أكتب قصصًا قصيرة نشرت معظمها في الصحف والمجلاّت، حتى تشكّلت مجموعتي الأولى، وكان عليّ التفكير في كتابة أولى رواياتي ليصبح عنوان المجموعة هكذا: حكايات الديب رمّاح.

كان عليّ التفكير في كتابة روايتي الأولى، ولم أجد أفضل من كتابة حكاية نور وبديعة ومحمد عبدون وصديقة ومحاسن وفتحيّة ورمضان وأولادهما، القصّة الحقيقيّة التي عشتها بكل حذافيرها وشكّلت طفولتي وصباي. كانت بديعة قد انقطعت عن زيارتنا، لكنّي كنت أتسمّع أخبارها وأتابعها من بعيد لبعيد، وعلمت أنّ نور يأتي يوميًّا لبديعة في نومها ليخبرها أنّه يريد أن يصبح وليًّا، وبديعة انهوست بمنامات نور فبدأت تقصّ رؤاها على كل عابر سبيل. تقول بديعة إنّه يزورها في المنام كل يوم. في البداية، كانت هناك مواعيد محدّدة لهذه الزيارات، على سبيل المثال: في اليوم الذي يزورها فيه يقول لها إنّه سوف يأتي غدًا في الساعة الفلانيّة، فكانت هي تعمل حسابها وتتهيّأ للنوم استعدادًا للزيارة. . أمّا فيما بعد، وقد تكرّرت زياراته، أصبح يأتي في أيّ وقت وعلى غير ميعاد، زيارات مباغتة لا تنتظر إن كانت نائمة أم مستيقظة. فتحيّة ابنتها الوحيدة من ريحة المرحوم، كانت تقول

لكل من تقابله إنّ أمها عقلها فوّت، مسكينة، نور أبي كان يأخذ بحسّها. أمّا بعد رحيله، وزواجي، أصبحتْ وحيدة، تغلق بابها على نفسها طوال الوقت وتحدّث نفسها بصوت عال. كانت تدير حوارًا طوال الوقت مع نور، وأحيانًا كانت تغضب وتتعارك معه وتخاصمه ثم تتصالح معه. برّرت بديعة تعلّق نور بها حتى بعد موته بأنّه كان يحبّها بجنون، وأنّه خُيّر في الجنَّة بين الحور العين وبينها، اختارها هي دون خلق الله. كانت تقول: نور ألف رحمة ونور عليه اختاره الله وليًّا من أوليائه، وسوف يظهر أمره على العالمين، لم تترك مسؤولاً في البلد، ذهبت إليهم جميعًا، أسمعتهم حكايتها، وفي النهاية ترجوهم تخصيص قطعة أرض لإقامة ضريح الولي، ولما كانت تعرف أنّ أحدًا لا يصدّقها، فقد جاءت إلى بيتنا ذات صباح بعد فترة انقطاع كبيرة، وأمام الجميع سحبتني من يدي بعيدًا وهمست في أذني: أقول لك على سرّ وتصدّقني؟ أومأت لها بهزّة من رأسي فاطمأنّت وجلست فجلست بجانبها، كنت أنظر إليها في دهشة من لا يعرفها، لم تكن بديعة التي فتنت بها وأنا صغير، بديعة التي أمامي ترك الزمن آثاره على وجهها وجسدها، انكمش عودها الفارع فبانت أقصر من الأول، وتغضّن وجهها وامتلأ بالتجاعيد، كما أنّ أسنانها الأماميّة وقعت فتركت تجويفًا معتمًا، عمّك نور زارني امبارح وعوزك تيجي معايا نزوره أنا وأنت وحدنا، وقال هايورينا معجزة. كنت أتفرّس في ملامح وجهها، كان حديثًا جادًّا ومفعمًا بالإيمان، رأيت ذلك في عينيها. قلت إنّني لن أخسر شيئًا اذا ما جاريتها، ثمّ إنّ زيارة الميت واجبة، وعم نور كان كلّما رآني ملأ جيبي بالحلوى، الله يرحمه.

في تمام الساعة السابعة إلاّ ربعًا كانت بديعة تنتظرني أمام البيت بفستانها الأسود القطيفة وطرحتها الحرير السوداء، ما إن رأتني حتى قالت: صباح الخير يا أستاذ، باين على وشك قلّة النوم زي خالتك بديعة، أصل نور وحشني قوي، وهو منتظرنا دلوقت همّ في المشي لحسن نعوأ عليه. انطلقنا إلى حيث يرقد نور رقدته الأخيرة. كانت مدينة الموتى تقع في أقصى المدينة، واستغرقت الرحلة بالأوتوبيس الذي اضطررنا لتغييره عدّة مرّات ساعتين ونصف الساعة، كان الوقت صيفًا وبدأت الشمس ترسل نارها الموقدة فوق أدمغتنا بلا رحمة، بديعة كانت تعرف الطريق جيّدًا فوفّرت علينا السؤال واللف والدوران، لما وصلنا الحوش، كان مغلقًا بباب ضخم من الحديد المشغول والمطلي بالأسود، خبطت بديعة على الباب ضربات سريعة ومتتالية فتردّد صدى الصوت في فضاء المدينة الصامتة، انفتح الباب بعد عدّة محاولات من الدقّ، وظهر على عتبته رجل عجوز تخطّى السبعين ويرتدي جلاّبية خضراء بخطوط طوليّة زرقاء، عيناه شبه مغلقتين من أثر النوم ، فتحهما بصعوبة نصف فتحة: مين؟ ست بديعة. أيوه يا عم عبده، أنت لسه نايم لحد دلوقت ـ ردّت بديعة، وتزحزح الرجل عن فتحة الباب فدخلنا، كان الحوش كبيرًا وواسعًا، واجهتنا ثلاثة صفوف من المقابر تفصل بينها مماشٍ وطرقات على جانبي الحوش وفي المنتصف، قالت بديعة إنّها ملك ثلاث عائلات من البلد نفسه ويربط بينهم النسب والقرابة، قادتني وسط الطرقات وشواهد القبور حتى توقّفت أمام مقبرة بلا شاهد وبلا إشارات: عمّك نور نايم هنا. للموت رهبته ولي معه وقفة، في التوهّمات، توغّلت إلى أبعد حدود التوهّم، ودخلت

في سكّة اللي يروح ما يرجعش، وصعّبت الحياة على نفسي، وعشت في نكد ما بعده نكد، وكدت أفارق من شدّة توغّلي في تصوّر لحظات المغادرة! هل أطلعكم على نتف ممّا كتبته في تلك الفترة المحنة؟ وهل يسمح المجال بذلك؟ ولم لا، وإذا كانت هناك قواعد للكتابة فالتمرّد عليها أولى. أنظروا لهذا التوهّم: توهّمت أنّ روحي راحت، وأنا الآن داخل قاعة مظلمة ليس لها ضبّة ولا مفتاح، فعلمت أنّ هذا قبري، ورأيت نفسي داخل كفني بين أربعة جدران ومن حولي ظلمة ووحشة، فبكيت على حالي، وقلت أين منّي أمسي وغدي، وتأسّفت على مسعاي وحلّي وترحالي في أرض الله الواسعة ساعيًا سوّاحًا في بلاد تشيلني وأخرى تحطّني بحثًا عن يقين علّه يدركني بنفحة، وبينما أنا كذلك أتفكّر في الملك والملكوت، وأنّ لله في خلقه شؤونًا، وقد ردّت روحي، إذ هبط إليّ وانحدر من طاقة مدوّرة في سقف قبري لم أرها قبل ذلك الحين وفي دائرها صفة نور، هبط ملكان طولهما لا يحدّه بصر، وعرضهما مثل ذلك، في يد كلّ منهما مرزبّة لو نزلت على جبل لدكّته دكًّا وجعلته هباء منثورًا، فعرفتهما، وعلمت أنّ الساعة ساعة امتحان، فقلت يا ساتر إستر من الفضائح، وألقي في قلبي أنّ بصرك اليوم حديد، ونظرت في جهة ثعبانًا كأنّه الفيل العظيم لو نظر إليّ لمتّ ألف مرّة من عظيم خلقته، ونظرت في جهة بعضًا من جهنم ـ اللهم احفظنا وإيّاكم ـ وفي جهة بعضًا من جنّة، فرقّ خاطري، وبين يديّ وضع سجلّي، وتصبّب العرق منّي، وسمعت فرقعة عظامي ووجيف قلبي من شدّة الوقفة والمسألة. أو هذا التوهّم الذي أسميته «توهّم نوحي»: توهّمت نفسي كما الغراب النوحي، وقلت الحال من بعضه، فكما ينوح

الغراب، هكذا أنا نيّاح على موتاي، وكأنّ الدنيا عدمت ناسها، وكأنّ همّي وغمّي لا ينتهيان، سلواي في التذكرة، وسياحتي وتفريج كربي عند أهل الآخرة، زمني غريب، وخطبي عظيم، ودومًا دومًا في توهّم دائم، كأنّي لا أعيش دونه، وكأنّه يتنفّس دمي، حتى صرت أنا والتوهّم اثنين في واحد، وحتى صرت أتوهّمني في كل أحوالي، في غدوي ورواحي، في صحوي ونومي، سرّائي وضرّائي، محياي ومماتي، فيا نكدي على دنياي، كرّ وفرّ، إقبال وإدبار، هكذا في كل الأحوال، ما نقص شيء إلاّ ليكتمل، وما اكتمل إلاّ لينقص ـ فسبحان مغيّر الأحوال ـ المهمّ أنّني أمسكت ربابتي في يدي، وعلى جسدي ارتديت كفني، ثم أنّني رميت نفسي في توهّم صعب أعرف حدوثه مهما بعدت المسافة وطال النأي، فهذا أمر مكتوب وليس منه مهروب، وما خشيت إلاّ شيئين: موت الفجأة، وموتي وأنا لا أباشر صنعتي، وكنت أظنّ أنّه لا يوجد في زمني أصبر منّي على مواجهة الموت، لما أعرفه وخبرته، ولي في هذا الباب مباحث كثيرة، ولمّا وطّنت النفس عليه منذ النشأة الأولى، وصرفها عن اللهو ومتع الدنيا لعلمي بوقوعه لا محالة، ولإدماني النظر في الكتب القديمة، فقد اطّلعت على نصيب وافر من كتب الأمم السابقة، وكدت أحفر لنفسي قبرًا في محل سكني، فأمكث فيه إلى ما شاء الله، وقد رأيت في هذا الباب ما لا عين رأت، وسمعت ما لا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر قطّ، وقد انقسمت على نفسي إلى قسمين: قسم يعيش عيشة أهل الدنيا، وآخر يعيش حياة أهل الآخرة، فكنت كالمعلّق بين السماء والأرض، فصرفت النفس عن الخوض في ذلك التوهّم، وعلى ألاّ أعود إلى هذه المسألة

بعد اليوم، وليقضِ الله أمرًا كان مفعولاً، فلا أدري ماذا أكسب غدًا، ولا أدري بأيّ أرض تكون قيامتي، فقد شاب شعري من التفكّر فيها، وانهدّ حيلي وعدمت عافيتي في انتظارها وترقّبها، المهمّ، بينما أنا هكذا أتفكّر، وإذا بربابتي تأخذ وضعها الصحيح في يدي، وإذا بها تعزف لحنًا دار في خاطري وكنت أظنّني تركته واسترحت، وبدأ صوتي ينوح ولساني ينطق غضبًا بهذين البيتين:

خلقت من التراب فصرت شخصًا، فصيحًا في السؤال وفي الجواب،

وعدت إلى التراب فصرت فيه، كأنّي ما برحت من التراب.

كنت أقف أمام قبر نور فاردًا كفّيَّ أمامي أقرأ الفاتحة على روحه وأرواح المسلمين، ثمّ تلفتُّ حولي، كانت بديعة واقفة مع عم عبدة التربي تحت ظلّ شجرة بعيدة، وكنت أرقبها تتحدّث إليه حديثًا لابدّ أنّه أغضبه، فقد ارتفع صوته قائلاً: كلام إيه دا يا ستّ بديعة، صاحب العقل يميّز. ثم أشار لي بالاقتراب فاتجهت ناحيتهما، أحضرنا يا أستاذ، الستّ عاوزه تودّيني في داهية، وأنا راجل كبير وصاحب عيال يا ست. فيه إيه بس يا عم عبده، مزعّل الست بديعة ليه، قلت وأنا أحاول تلطيف الموقف وعلى وجهي وضعت ابتسامة. فيه أنّ الستّ طلبت منّي أفتح التربة وأخرج جثّة جوزها اللّي ميت من عشرين سنة، بقى ده كلام يعقل يا عالم، ثم إنّ التربة ما تتفتحش إلاّ بتصريح من الأمن، آه دي مسؤوليّة وفيها سين وجيم وخراب بيوت. بديعة كانت واقفة في ثبات وفي عينيها نظرات تحدٍّ، هو أنا باطلب منك تصحّيه؟ أنا طالبة أشوف جوزي ودا حقّي. لأ، مش من حقّك، قال عم عبده بحدّة، ما عدش جوز حضرتك من ساعة ما مات، القرآن والسنّة

بيقولوا كدة، هو دلوقت بين إيدين ربّنا، وجوّزه أحسن منّك، حور عين لم يمسسهنّ إنس ولا جانّ، اعترضي بقى على كلام ربّنا. لم تيأس بديعة، وبدت لها محاولة إقناعه مسألة حياة أو موت، وبدأت أشكّ في أنّها سوف تقنع الرجل العجوز، لكن بديعة حسمت الموضوع حسمًا نهائيًا، فقد أخذت عم عبده من يده، وجرّته بعيدًا عنّي، ولمحتها تدسّ يدها في صدرها وتخرج شيئًا تضعه في جيب جلاّبيته العلوي. تركها الرجل وغاب لحظات ثم عاد يحمل في يده سلسلة مفاتيح كبيرة، في صمت تقدّمنا ونحن سرنا خلفه حتى وقف أمام مقبرة نور، تخيّر مفتاحًا وضعه في قفل الباب الصغير وأداره فانفتح، تعجّبت من موقف الرجل العجوز وقلت هو المال سيّد هذا العالم والعصا السحريّة التي تفتح كل مغلق، راقبته وهو ينزل السلالم الحجريّة الصغيرة حتى غاب عن أنظارنا، عاد بعد دقائق ووقف على السلّم في المنتصف وزعق: الرمم كتير وأنا ما أعرفش رمّة جوزك من غيره، قالت بديعة بلهفة أنا أعرفها، واتّجهت مهرولة نحو فتحة المقبرة فأوقفها الرجل بإشارة من يده: حرام يا ست تنزلي عين الرجالة. أسرعت بديعة وأزاحته عن طريقها بذراعها فتنحّى وسمح لها بالمرور ونزل خلفها وجلست أمام التربة وفوهتها المفتوحة على الظلام جعلتني أسرح قليلاً متأمّلاً المصير الإنساني.. يقول شيخي محيي الدين بن عربي: الموت سهم صوّب إليك لحظة مولدك، وحياتك بقدر وصول السهم إليك. قضي الأمر وطويت الصحف ولا رادّ لقضائه، فالسهم انطلق، وهو آت لا محالة، مسألة وقت ليس إلاّ. فصّلت ذلك في توهّماتي لمن أراد المزيد من النكد؛ أمّا أنا فأردّ نفسي عن شرودها وأعود إلى روايتي.

خرجت بديعة وقد تهلّل وجهها بالفرح، وخرج وراءها عم عبده يحمل فوق كتفه جثة ملفوفة في كفنها، وضعها أمامنا على الأرض، نظرت إليّ بديعة وهي تشير بإصبعها: عمّك نور قدّامك أهو. كانت أولى معجزات نور وكراماته أنّ الكفن ظلّ على حاله متماسكًا وصلبًا كما كان منذ عشرين سنة، هي عمره ميتًا، وبدا لي أنّ بديعة تنظر إلينا بزهو وخيلاء وكأنّها فخورة بما أرتنا إيّاه، تقدّمت بديعة وركعت على ركبتيها أمام الجسد العصيّ على التحلّل وانحنت تفكّ أربطة الكفن، ثم إنّها أزاحت طيّات القماش عن الجسد دفعة واحدة، وبدا وجهه في ضوء الشمس التي انعكست فوقه نابضًا بالحياة، بل أكثر من ذلك كانت تظلّله شبه ابتسامة مطمئنة، وخيّل لي أنّه في غفوة قد يصحو منها في أيّة لحظة، حملقنا غير مصدّقين ما نراه أمام أعيننا، والرجل العجوز رفع إصبع السبابة أمام الجسد متمتمًا بآيات من القرآن وناطقًا بالشهادتين. وأنا أردت التأكّد فاقتربت من الجسد ولمسته بأصابعي لمسًا خفيفًا فسرت رعدة في جسدي، كان غضًّا ودافئًا، والماء الذي غسّل به مازالت نداوته يحملها اللحم الطريّ الذي تفوح منه رائحة ماء الورد.. تذكّرت قصّة عزير، أحد أنبياء بني إسرائيل الذي مرّ على قرية خربة، فقال أن يحيي الله هذه الأرض بعد موتها، فردّ عليه صوت من السماء: يحييها الذي أنشأها أوّل مرّة. ثمّ إنّ الله أماته مائة عام ثمّ بعثه من جديد ليكون شاهدًا على معجزة الله، كنت مهيّئًا الآن لتقبّل معجزة الأحياء مرّة أخرى، فهل تحدث؟

٦

في طريق العودة، كنت أجلس أنا وبديعة متلاصقين في الميكروباص المزدحم بالبشر، كان الجوّ حارًّا خانقًا مع لزوجة بفعل رطوبة الجو وروائح بدائيّة تنبعث من الأجساد جعلتني أشعر بالاختناق، بديعة دخلت في الصمت دون مقدّمات وتوحّدت مع نفسها. وقطعًا للوقت أخذت أفكّر في تلك الأشياء الخارقة للمألوف والتي لا دخل للعقل أو المنطق في تعليلها، وما علينا سوى أن نأخذها هكذا دون إعمال العقل كأمر مسلّم به، وتبلورت في ذهني فكرة مقال عن تلك الأشياء التي هي دون معجزات الرسل، لكنّها خارقة لناموس الطبيعة المعروف، كامتلاك بعض الأشخاص لقدرات غير طبيعيّة. كنت قرأت وسمعت كثيرًا عن رجال يأكلون الزجاج، أو يجرّون عربة نقل بشعر الرؤوس واللّحى، أو يقفزون من أعالي البنايات، وهناك من يملكون قدرات سحريّة، أو أولئك الذين يتخاطرون عن بعد، وفي تراثنا الصوفي حدّث ولا حرج.. رجال يطوون الأرض طيًّا، وآخرون يطيرون في الفضاء، ومن يعبر الزمان والمكان، أو من يمشي على الماء، وهناك حكاية مشهورة في التراث العربي الصوفي هي من عيون هذا التراث، ولكن مع الأسف وجد من نقلها بحذافيرها مع تعديل بسيط هو نسبتها للتراث التبشيري

المسيحي، ومن لم يصدّق فليقرأ رواية باولو كويلهو «بالقرب من نهر بيدرا»، الحكاية تحكي عن رجل فلاّح يعيش على فطرته الأولى، وإيمانه بالله لا تشوبه شائبة، يعمل في حقله بالقرب من نهر، وكان يصلّي صلاته حين مرّ عليه جماعة من كبار المشايخ، فوجدوا الرجل يصلّي خطأ فانتظروه حتى انتهى من صلاته وبدأوا يعلّمونه الطريقة الصحيحة للصلاة، ثم إنّهم تركوه وواصلوا رحلتهم بالمركب في مياه النهر، وحدث أنّ الرجل نسي بعض ما قاله المشايخ له فجرى على الماء ليلحق بهم، فنظروا من المركب وجدوا الرجل يجري فوق الماء حتى وصل إليهم ليسألهم عن الطريقة المثلى للصلاة، فإذ بهم يقولون له في نفس واحد: ابق على صلاتك وعباداتك كما تعرفها، فقد أوصلتك إلى ما لا نستطيع الوصول إليه بعلمنا.

حين وصلنا، ودّعتني بديعة بإشارة من يدها ومضت من دون أن تتكلّم، أخذت أرقبها حتى غابت عن ناظريّ، ثم صعدت من فوري إلى غرفتي وبدأت في كتابة المقال الذي استغرق الوقت، ولم أدرِ إلاّ والمساء قد حلّ، ارتديت ملابسي وركبت الأوتوبيس المتّجه إلى محلّة السرايات حيث مكاتب الكمبيوتر الكثيرة والمنتشرة هناك، صوّرت من المقال عدّة نسخ وزّعتها على عدّة جرائد واحتفظت بنسخة. بعد مرور أكثر من شهر، كنت أتصفّح الجرائد مصادفة في صالة الانتظار بمطار القاهرة الدولي، كنت أنا وأخوتي في انتظار أبي العائد من الحجّ، وكنت أشعر بالملل فأخذت أقرأ العناوين الرئيسيّة: الرئيس جاء، الرئيس ذهب، الرئيس استقبل، صورة لعاطف عبيد رئيس الوزراء وقد بدا للوهلة الأولى أنّه لم ينم منذ سنة، هالات سوداء وانتفاخات الأكياس

الدهنيّة حول عينيه تجعل صورته بشعة، وعلى لسانه تصريحات حول السلع الأساسيّة التي سوف تنخفض حفاظًا على محدودي الدخل، مقتل اثني عشر جنديًا أميركيًا في الفلوجة والقوّات الإسرائيليّة تجتاح مدينة غزّة وتهدم عشرات البيوت، إلى آخر العناوين المكرّرة والمعادة.. وفي إحدى الجرائد وقعت عيني على عنوان بدا لي للوهلة الأولى أنّي أعرفه: الولي الذي تمّ اكتشافه في بولاق الدكرور. وتحت هذا العنوان وببنط أصغر: دفن حيًّا وبعد خمسة وعشرين عامًا يخرج من قبره ليظهر كراماته. كان المقال يحتلّ النصف الأعلى من الجريدة، بينما النصف الأسفل امتلأ بصور فاضحة لأحد القساوسة وهو يمارس الجنس مع بعض النساء، وقد قدّر لهذا العدد من الجريدة أن يتخطّفه القرّاء، وأصبح لا حديث للناس في بولاق الدكرور إلاّ عن ولي الله الشيخ نور الدين وكراماته، بل صار الناس ينسبون إليه بعض الحكايات والكرامات، من ذلك مثلاً ما رواه رفيق طفولته الحاج سيّد دعبس الذي يقسم بأيمانات المسلمين أنّ ما سوف يرويه شاهده بعينيه اللتين سوف يأكلهما الدود، حدّث فقال: كنّا نلعب ذات مرّة في الحارة، كنت وقتها ابن عشر سنين، ونور في مثل سنّي تقريبًا، وكانت بولاق الدكرور عبارة عن غيطان ترمح فيها الخيّالة ما تجيبش آخرها، والضفادع أكتر من البني آدمين، نور جاب ضفدعة كبيرة، وجاب حتّة أبلكاش وصلب الضفدعة من أرجلها الأربع على الخشبة بمسامير سنّارة تلاتة سنتي، ما كنّاش واخدين بالنا في الأول من اللّي بيعمله، ولمّا انتبهنا، اتلمّينا حواليه وبدأنا نراقبه، بعد كدة جاب نملة كبيرة من النوع الفارسي وصلبها جنب الضفدعة، وحاول صلب النملة زيّ ما عمل مع

الضفدعة ففشل، فما كان منه إلاّأن جاب كلّة اللّي بنلزق بيها الكورة الشراب ولزق النملة في الخشبة جنب أختها، بعد كده جاب موس حلاقة وشق صدر الضفدعة، وعمل الشيء نفسه مع النملة، وحطّ قلب النملة مكان قلب الضفدعة وقلب الضفدعة مكان قلب النملة، وشاور بصباعه مكان الجرحين فرجع كما كان، بعد كدة فكّ الاتنين من الصلب فنطّوا يجرون كما الرهوان وكل واحد عاش بقلب التاني سبحان الله. واقعة أخرى رواها أحد رفقاء شبابه، ويدعى زعبولا، كان أحد تجّار البانجو المعروفين في المنطقة فقال: صاحبت الشيخ نور فترة من فترات الشقاوة، كنّا نتقاسم فيها كل شيء، الحشيش، الأفيون، السجائر، البانجو، وحتى النسوان والنومة، وكنت لمّا الدنيا تضيق بي، أروح عنده فيأويني في بيت أمّه، آكل وأدخّن وأشرب ولا أحمل أيّ همّ، يعني باختصار كان صاحب صاحبه، فلمّا قبض علينا أنا وهو ذات مرّة، قعدنا في قسم الشرطة عشرة أيّام من دون طعام أو شراب، ولم يسأل فينا أحد، ورأيته متضايقًا يجلس وحيدًا بعيدًا عن الجميع متكوّمًا على نفسه في ركن الزنزانة الضيّقة، وكان يدفن رأسه بين ركبتيه بالساعات من دون أن يتكلّم مع أحد، تركته أوّل الأمر وقلت لابدّ أنّه تضايق لأنّ لا أمّه ولا أخته عبّروه بالزيارة، بعد فترة قلت ما بدهاش ويا واد روح شوف صاحبك ما له، فاقتربت منه وطبطبت على ظهره وقلت لا تزعل يا صاحبي، فرجه قريب. فرفع رأسه ونظر إليّ في حسرة، وشفت عينه مرغرغة بالدموع وتنهّد وقال: تعرف يا بولا ـ كان يناديني هكذا ـ حاسس أنّ حياتنا عايشينها غلط في غلط، وماشيين في طريق آخره حيطة سدّ، ثم غمغم لنفسه: إنّك لا تهدي من

أحببت، ولكن الله يهدي من يشاء. ثم إنّني تركته ونمت، لكنّي قلقت قرب الفجر فصحوت على صوت خروشة، ونظرت ناحية نور فرأيت ما تعجّبت له، كانت طاقة من النور على هيئة دائرة تقف فوق رأس نور وتضيء المكان حوله، ورأيته يخطّ على جدار الزنزانة بإصبعه، فلمّا اقتربت منه شاهدته يرسم مركبًا كبيرًا بصاري وقلع ومجاديف وناس تطلّ من داخل المركب، فلمّا اكتمل الرسم كادت المركب أن تكون حقيقيّة، ووجدني أقف خلف ظهره أتأمّل ما فعل وعلى وجهي علامات دهشة، ابتسم وأشار إلى المركب: هل تريد ركوب هذه والخروج من سجنك الصغير؟ فضحكت وقلت: يا ريت يا خويا، بسّ فين البحر اللي تمشي فيه المركب! فنظر لي وابتسم قائلاً: لو أراد شيئًا يقول للشيء كن فيكون. وبينما أنا وهو كذلك، صحا جميع من في السجن ووقفوا يتفرّجون علينا وعلى المركب، فالتفت إليهم وقال: يا جماعة الخير، إنّما الأعمال بالنيّات ولكل امرئ ما نوى، من أراد منكم التوبة فليتب بنيّة صادقة فإنّه يركب ها هنا، وأشار إلى الحائط، فباسم الله مجراها ومرساها. وما نشعر إلاّ ونحن جميعًا محشورون في المركب، وهي تتحرّك بنا وتعبر المسافات حتى انحدفت بنا في عرض البحر إلاّ هو، فقد آثر المكوث في سجنه حتّى يقضي الله في أمره، فسبحان الذي هدانا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله.. وها أنا ذا أحكي عمّا رأيته وسمعته بالتمام والكمال، والحمد لله على كل حال.

القسم الرابع

١

حفني

رأى حفني نفسه فيما يرى النائم وكأنّ حجرًا ثقيلاً وضع على صدره فلا يستطيع التنفّس، ورأى نفسه يصعد جبلاً يجد في نهايته أسدًا ضخمًا يأخذ في التهامه حتى لا يتبقّى منه شيء، ورأى محمد عبدون يرتدي رداء سجين بوجه أسود كظيم ويبكي بدل الدموع دمًا، ورأى نفسه في حضن زوجته وهي تئنّ من اللذة وينزل ماءه صديدًا له رائحة كريهة فيغرقها، ورأى بطنها لا يتوقّف عن الانتفاخ حتى ينفجر بدويّ رهيب.

قصّ حفني رؤياه على صفاء فعوجت بوزها يمينًا وشمالاً وعلّقت قائلة بنبرة استهزاء: يمكن بسّ ما تغطيتش كويّس وطيزك اتعرّت واتملّت هوا. لكن قلبها اتعصر شفقة عليه، له ثلاثة أشهر وجسمه في النازل ويشتكي من وجع في كل جثّته، وآخر مرّة نام معها كان مثل الصبي الملبوخ الذي يفعلها لأوّل مرّة، تذكّرت كيف كانت تصرخ وتتلوّى من تحته وهو لا حياة لمن تنادي، كانت زلومته مكموشة في بعضها ومتهدّلة كما الخرقة القديمة، فرجته أن يعبث بأصابعه حتى تستريح وتهدأ. تذكّرت في تلك اللحظة محمد عبدون ـ يبشبش الطوبه اللّي تحت دماغه ـ كان

يعصر جسدها عصرًا ، ودائمًا ما كان منتصبًا مثل وتد ناشف، قالت : القوالب نامت والأنصاص قامت، ربما كانت تعرف السبب الحقيقي لارتخائه، ففي إحدى المرّات وبينما كانت بين ذراعيه، لم تره متهيّجًا مثل هذه المرّة، وكانت فحولته تؤلمها فكادت يغمى عليها من شدّة النشوة، في تلك اللحظة فلتت من لسانها كلمة: بحبك يا محمد. فكأنّها رمت عليه جردل ماء بارد، همد فجأة وانكمش في بعضه ونظر إلى عريّها الكامل ممدّدًا على السرير ولم ينطق بحرف، فقط اكتفى بإدارة ظهره لها متصنّعًا النوم. من يومها، أقسم ألاّ يقترب منها أبدًا، ولكن كلّما طال الوقت، كان جوعه لجسدها ينهشه، كانت لها عاداتها في النوم، ترتدي قميص نوم على اللحم، وحين تنام ينحصر إلى ما فوق بطنها فيظهر عريّها كاملاً أمام عينيه، كان يجلس بالساعات في العتمة الخفيفة أمام الجسد الأبيض المشعّ، يتأمّلها من كعبي رجليها حتى أعلى نقطة في رأسها، استدارة ربلتي ساقيها والتفاف فخذيها وبضاضتهما، كبر حجم هنها والشعر الأسود الناعم فوق عانتها ومن حوله، فكأنّه الأسد في عرينه، طيّات بطنها والسرّة الغائرة، الصدر البض المدملج الصلب يكاد يفرّ من مخابئه، الوجه بملاحته التي دوّخته حين رآها أول مرّة، في بعض الأحيان كان يشتاق للمس جسدها فيتأكّد من نومها، ثم يمرّر كفّ يده على كل مغاورها بخفّة لصّ ورعشة عاشق، ربما كانت تحسّ بلمساته، فقد أنّت ذات مرّة تحت وقع تلك اللمسات، واستدارت لتنام على ظهرها لتمكّنه من نفسها، لكنّه انسحب بعيدًا عنها متأرجحًا بين لواعج الشوق للجسد المشتهى، وكرامة أريقت دون أدنى شفقة.

أحسّ حفني بوادر تعب كانت أهمّ تجلّياتها شعوره بالوهن طوال الوقت، وشكشكة كانت خفيفة أول الأمر مصدرها خصيتيه، كان يستطيع احتمالها مرجعًا ذلك الألم الذي أصبح عميقًا بعد ذلك للفحات الهواء التي كان معرّضًا لها باستمرار بعد يوم عمل شاقّ، ومع مرور الوقت بدأ الألم يصبح أكثر عمقًا وضراوة، كان المرض يمتصّه ببطء يومًا بعد يوم، حتى أصبح مثل عود حطب جافّ، أرجعت صديقة حالة ضعفه إلى كثرة نشاطه الجنسي، أصل اللبوة مراته رافعة رجليها طول الوقت، ولو ما عملش كدا هاترفعهم لأيّ واحد ماشي في الحارة. لكن بديعة كان لها رأي آخر حين رأته ونظرت إلى عينيه، فقد غمغمت لنفسها: حنفي بيعيش محنة موته، وبدأ يمشي في سكّة اللّي يروح ما يرجعش. كانت على يقين من موت أخيها، من أين أتاها؟ لا تعرف، لكنّها في الآونة الأخيرة أصبحت تنبّؤاتها أكثر صدقًا وشفافيّة من تنبّؤات نوستراداموس نفسه، فهي التي تنبّأت بزلزال شقّ أرض مصر عام ٩٢، كما تنبّأت قبل ذلك بمقتل السادات في حادث المنصّة الشهير، وأدلت بأوصاف من سيخلفه على عرش البلاد، حدث ذلك بعد أن أعيتها الحيل في تنصيب زوجها نور وليًا على بولاق الدكرور وضواحيها، كم كانت تحلم بمثل هذا اليوم، ضريح بقبّة خضراء، وسياج من الحديد الأسود الناعم يلفّ المقام، والنور الأخضر يسطع حوله وفوقه وتحته، والناس تجيء من كل الجهات لزيارته والتبرّك به، يقيمون له مولدًا كل سنة في يوم وساعة يعرفهما الجميع، وتذكّرت في تلك اللحظة أنّها لا تعرف متى ولد نور وفي أيّ ساعة قدم إلى الدنيا، قالت: ليكن تاريخ وفاته هو الذي يحتفل به، فأنا أعرفه جيّدًا.

كان الوقت ليلاً، وبولاق الدكرور التي لا تهدأ ولا تنام، كانت نائمة وهادئة، وسمعت صفاء صوته يجأر جاااااااااي الحقيني يا بتّ يا صفاء، هبّت فزعة: فيه إيه مالك. قال من بين أسنانه: محاشمي هاتموّتني. كان يقبض عليهما بكلتا يديه مائلاً ناحيتهما بجذعه، ورّيني كدة. قالت وأخذت في خلع سرواله ولباسه، وأمسكت بخصيتيه بين أصابعها وأخذت تمرسهما بالراحة، وهالها ما أصبح عليه جهازه، كان ضئيلاً ومنكمشًا مثل قطعة من الجلد الميت بلا نبض ولا حياة، لكنّ الألم ازداد، ولم تفلح محاولتها في هدهدة خصيتيه، واضطرت لأخذه إلى مستشفى القصر العيني عند الفجر، وفي الاستقبال كشفوا عليه، وتمّ حجزه خمسة عشر يومًا لعمل تحاليل وأشعّة على خصيتيه اللّتين تضاعف حجمهما بين فخذيه حتى أنّه لم يعد يستطيع المشي. لازمته صفاء طوال المدّة، كانت تذهب إليه صباحًا حاملة معها ما استطاعت تدبيره من طعام أو فاكهة، وتظلّ معه حتى المساء، حطّت نفسها تحت رجليه ربّما لإحساسها بالذنب تجاهه، اكتشفت صفاء أنّ زوجها رجل طيّب ما كان يستحقّ ما فعلته معه فأحسّت بالندم، ونوت بينها وبين نفسها إذا ربّنا كرّمه وأخذ بيده، فستجعل خدّها مداسًا له، لكن حظّها عاندها، فقد جاءت كلّ التقارير والأشعّة لتؤكّد حقيقة واحدة لا شكّ فيها: إنّ سرطانه قد تمكّن وانتصر.

٢

بديعة

بعد موت أخيها حفني المأسوي، أقفلت بديعة بابها على نفسها ولم تعد ترى أحدًا أو يراها أحد، كرهت الدنيا وكرهت نفسها بعد ما رأته من عذابات موت حفني، فقد ظلّ يحتضر ستّة أشهر كاملة، وأصبح من يحبّه يتمنّى له الموت، رأته يتلاشى شيئًا فشيئًا حتى أصبح مثل خيال المآتة، جلدًا على عظم، وكانت عظامه تشوى على نار هادئة، صرخ مرّة فيها: إنتِ مش أختي وبتقولي إنّ جوزك ولي، قولي له يرحمني، النار بتاكل في جتتي يا ناس. لحظتها تغرغرت عيناها بالدموع ومالت على أذنه حتى لا يسمعها غيره وهمست: ما تكفرش وأنت هاتقابل ربك بعد ساعات، أطلب الرحمة منه. بعد ساعات تقابل ربًّا اسمه الكريم، وتدفن في ظلام القبور ويجيء إليك ملكان يسألانك عن ربّك ودينك وملّتك فقل معي: الله ربّي حقًّا، والإسلام ديني، والكعبة قبلتي، والقرآن كتابي ومحمد بن عبد الله نبيّي، قل آمنت بالله تعالى وما أنزل على الأنبياء، قل ورائي خلق الإنسان في كمد، وما الحياة الدنيا إلاّ متاع الغرور. إذا سألاك فقل لهما

بلسان عربي فصيح: الجنّة حقّ، والنار حقّ، والحياة الآخرة حقّ وهي خير وأبقى. كانت تلقّنه آخر تعليمات سفره الأخير، وكان مختنقًا بسرطانه فأشاح بيده كي تبتعد عنه، تركته ومشت وهي على يقين من أنّ هذا هو يومه الأخير في الدنيا، لكنّه عاند ملائكة روحه وصرخ بت يا صفاء، شيليني طلّعيني برّه في الشارع، عاوز أشوف الناس. وضعوا له كرسيًّا جنب حائط البيت جلس عليه ملمومًا في بعضه، كانت الناس في غدوها ورواحها ترمي عليه السلام وتسأل عن صحّته، وكان يقول الحمد لله على كل حال.

كان الوقت صباحًا، وشمس الشتاء ترسل أشعّة دافئة، واليوم هو أوّل رمضان، أصرّ على صومه، ونظر حفني إلى السماء وهي تتلوّن أمام عينيه بألوان الطيف، وكرات بلّوريّة تتراقص في الهواء لها لون الزيت، وشعر في تلك اللحظة أنّ الحياة جميلة، وتمنّى لو كان في العمر بقيّة، لكنّه سقط من فوق الكرسي ومات.

٣

بديعة

رأت بديعة فيما يرى النائم، وكأنّ أبواب السماء قد فتحت بقدرة الله وقدره، وظهرت أمام عينيها طاقة قدر القبّة وهي صافية البياض وفي دايرها اختضار كهيئة الفجر عند لياحه، ورأت كل شيء على الأرض ساجدًا: الناس، والوحش، والطير.. فلا ديك يصيح، ولا كلب ينبح، حتى الأشجار كانت راقدة، وإذا هي في مكان واسع رحيب، وإذا بنور عظيم يأخذ البصر السليم يضيء المكان، وفي عقب ذلك النور رجل عابد زاهد، فلمّا أقبل صاح بسم الله، المكان خال يا عباد الله. فعند ذلك النداء أقبل بعض الرجال وأخذوا يصفّون الكراسي في الجهتين، ثم أتوا بكرسيّ كبير وضعوه في صدر المجلس؛ وصاح أحد الرجال، وهو نقيبهم، يا سادة الأرض ذات الطول والعرض أحضروا ذلك المحضر كما أمر قطب الأقطاب الأكبر سيدي أحمد البدوي والشريف العلوي صاحب الإمداد النبويّ. فعند ذلك أقبلت الرجال كأنّهم الأقمار، وجلسوا ذات اليمين وذات اليسار ووقف النقيب بين أيديهم، وقال: أبدأ مديحي في جمال محمّد، نبيّ

عربيّ أجار الغزالة وأطلقها من أسر صاحبها اليهوديّ اللئيم، وبعد، هذه يا إخوان قصّة سيدي أحمد البدوي البحر العجاج المتلاطم بالأمواج القطب النبوي الشريف العلوي باب النبي ودليل الحج أبو الفتيان سيدي أحمد البدوي رضي الله عنه وأرضاه، وهي تشتمل على قصّة الأميرة خضرة الشريفة وما جرى لها في بلاد النصارى، وكرامة السيّد البدوي حين أتى بها وكرامات الأقطاب المذكورين رضي الله عنهم بالتمام والكمال والحمد لله على كل حال. قال الرجال: وكيف كان ذلك يا نقيب السادة الأمجاد؟ قال: **الحمد لله الحنّان ورازق الإنس والجان كذا الطيور مع الحيتان والدود في قلب الصخرة نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، وبعدها صلِّ على الزين نبيّنا مكحول العين اللّي القمر له انشقّ اتنين وجت إليه ساجدة الشجرة نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، كذا صلاتي ع الأصحاب والتابعين ثم الأنجاب والأولياء ثم الأقطاب والصالحين أعلى العشرة نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، وبعد هذا يا شاطر اسمع كلام كله جواهر صنعته وكان عقلي حاضرًا وفكري كان مثل الدرّة نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، لو كان كذا عندي مليون من الهموم ولاّ محزون وتقرا فيه مرّة بالنون تزول همومك بالمرّة نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، أقول كلامي وتفنيني قبل الزمان ما يفنيني في نظم قصة متقونة تنبيك عن سيرة خضرة نظرة يا سيد يا جايب اليسرة، كان يوم من أيّام الجمعة نزلت ببابها دي الشمعة لمعها نصراني لمعة عقله انخطف كله مرّة نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، وقال مين حايجيبها لي دا كنت أغنيه بالمال فقالت أمّه أصفالي نادي**

العجايز من برة نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، حضروا العجايز دول تسعين من مكرهم غلبت شياطين فقالوا إيش أنتم طالبين فقال لهم عايز خضرة نظرة يا سيد يا جايب اليسرة، قالت عجوز ملعونة البوز وأنفها يشبه الكوز دا إيه دنا عندي مربوز حالاً يجيبها لك بكرة نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، راحت لدارها وهي تجري وشبشبت يعني بسحري وجت لخضرة من بدري منزيرة ولابسة حبرة نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، وجت إليها المشوبة والسبحة في إيدها مقلوبة بقيت وليّة ومجذوبة تذكر كأولاد الفقرة نظرة يا سيد يا جايب اليسرة، طلعت لها القصر العالي توحّد المولى العالي لقت جبينها بيلالي فاتحة الكتاب كله وتقرأ نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، قالت لها صباح الخير يا طاهرة يا وجه الخير يا حلوة السيرة والسير يا حسن يوسف يا قمرة نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، قالت لها ألفين صباح عليك يا ست الصلاح والكل جاهًا والأفراح كلت وشربت دي العرة نظرة يا بدوى يا جايب اليسرة، ولمّا طفحت دي البومة قالت لها يا ميمونة تنك لأمّتي محزونة ما بتخرجيش دومًا برّة نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، يلا بينا هناك نتفسّح ونشوف كدا البحر بيمرح والموج دا فيه عمّال يرمح ولاّ كده الأسماك آخرة نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، ولّت وراها كالنجفة ويّاها أولادها الشرفة مشت أمامهم دي المكفة طيطة وتجري كالبقرة نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، خضرا كدا بصّت بالعين وشافت الغليون يا رزين يجري كدا بين البرين قالت عليه بتاع كفرة نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، فحلفت لها ألف يمين بأنّه بتاع ناس مسلمين يوحّدوا ربّ

العالمين وكلّهم أبطال امرا نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، يعني كدا شوفي الريّس واقف محندق كويّس شاطر لبيب عقله كويّس واقفين وراه كلّ الغفرة نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، والصاري عمّال بيلالي ذهب ولكن م الغالي والدفّة فضّة كهلالي منوّرة مثل القمرة نظرة يا سيّد يا جايب اليسرة، ولمّا وصل الغليون ونادت الريّس أنطون ساعت ما شافها الملعون قال للعجوز ألفين شاطرة نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، ثم زعق على النواتية حطّوا السقالة الذهبيّة والقصّة الأخرى المجليّة لزينة الدنيا خضرة نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، ما فيش أحد يطلع عندي إلاّ الشريفة دي ووحدي أمّا العجوزة دي بعدي تفرح الست الحرّة نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، وبعد ما دخل جوّه عان السقالة بمروّة وجرى غليونه بقوّة على بلاده ابن الكفرة نظرة يا سيّد يا جايب اليسرة، أمّا كدا الأشراف يا أسياد بكوا بكا يقطّع الأكباد والوجه صار منهم كرماد وروّحوا وحالهم عبرة نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، رجع كلامنا يا صناديد لمّا جرى الغليون بعيد قيد رجولها بقيد حديد وأيديها وأكتافها الأخرى نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، وخضرة تزعق يا شيطان ما تخفش من ربّ الديان اللّي يعذّب بالنيران يوم القيامة في الآخرة نظرة يا سيّد يا جايب اليسرة، يا رب يا عالم بالحال انجدني من هذي الأحوال يا سيدي يا عبد العال أنظر لمحبوبتك نظرة نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، قام قال الملعون يا زين يا قرّة الحاجب والعين حا تبقى سلطانة البرين جوزك ملك الكفرة نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، أمّا العجوز تقول سيري مين يمكنه يجيبك غيري دا لمّا ينظرني أميري يهديني

أنواع البشرة نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، وتنهم يعني مسافرين
تسعين ليلة بالتمكين لا نوم يناموا بل صاحيين يدادوا ويرضوا
خضرة نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، ولمّا رسيم بالغليون
والعجوز نادت أنطون خلّيك هنا وركبت فيتون علشان تبشّر دي
العاهرة نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، طلعت على قصر السلطان
وقالت افرح يا سمعان واعطني محرمة الأمان جبتلك خضرة
القمرة نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، فقال لها ألفين دينار
يرضوك يا ستّ الشطّار والأبعديّة والدوّار وخمسين نعجة وميت
بقرة نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، ردّت قالت له الله يعطيك
زدني كمان أردب فريك قال لها وألف ومايه ديك أعطوها حالاً يا
وزرا نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، وبعدها نادى الخدّام وقال
لهم تسعولي قوام وتحضروا المركب بتمام وتقابلوا خضرة الفخرة
نظرة يا سيّد يا جايب اليسرة، راحوا قوام جابوا المزمار كذا
الطبول مع الأوتار وجابوا خضرة بالمشوار وكل دا وهي صابرة
نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، دا بعد ما حلّوا أكتافها ولبّسوها
ثياب خفّة ودخّلوها بالدفّة بقيت منيرة كالدرّة نظرة يا بدوي يا
جايب اليسرة، طلعت على ملك الكفّار فقال أيا ستّ الشطّار
القصر كلّه زاد أنوار لمّا هلّيتي يا قمرة نظرة يا بدوي يا جايب
اليسرة، وقام بنالها في الحال قصر كبير عالي وغالي طوبه دهب
كله يلالي وأرضه فضّة معتبرة نظرة يا سيّد يا جايب اليسرة،
وسكنوها في أوضة من جوّه أوضة مرصودة لحسن كدا واحدة
حسودة تشوفها تحسدها بنظرة نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة،
وجاب لها الصيارف في الحال وشغلهم تنه عمال تسعين صياغ

في دي الأشغال وكل ده علشان خضرة نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، دقّوا لها الحلقان ألمظ أمّا الشعير كلّه مألوظ شغل الخواجة بك ألمظ اللّي انشهر في بلاد برّة نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، أمّا الحرام من كلام مفيش كدا أبدًا يا سلام شغل الخواجه أبو عرام اللّي نقش فيه الشجرة نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، أمّا الذي دقّ الكردان اللّي ما شاف زيّه إنسان شغل الخواجة أبو قردان اللّي ملاّ صيته الكفرة نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، أمّا الذي دقّ الخلاخيل من الذهب خالص يا جميل اسمه الخواجة مسيو خليل اللّي بقت له برّه الشهرة نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، أمّا الأداسي يا أسياسي من فضّة شوشة أساسي شغل المعلّم ملاسي شيخ الخواجات الكبرى نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، والمشط الآخر من لولي أسمع كلامي ومنقولّي حسّك تقول غير معقول لأنّه عن ناس معتبرة نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، طفت الصعيد الجوّاني وتني أبحث بالتاني لمّا التقيتها يا إخواني مع ناس كدا كلّك امرة نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، يرجع كلامنا للسلطان اللّي عوج عقله الشيطان وبدّه يرميه دا الغفلان حالاً ويفتح له حفرة نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، أمّا الحاجات الأبطال تموّله كل الأشغال راحوا عليه كالملك في الحال شاف شغلهم صار في جمرة نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، ونادى خدّامه يا رجال الخيّاطين تمّوا الأشغال قالوا له الخدّام أمّال خلصم وطالبين الأجرة نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، أدّاهم الأجرة الملعون وقال لخدّامه سيحون انده لفرّاشنا الميمون يعمل لي زينة معتبرة نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة،

وقتها الفرّاش يا ناس جاب الحرير كلّه أجناس فضّل يفصّل بالمقاس رايات كده حمرة وخضرة نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، جاب المزارع ما تنعدّ أصناف كتيرة مالهاش حدّ خصوصًا الياسمين والورد والآس دا جاب منه بكترة نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، بعدين فرش كلّ البساطات على الدكك جوّه السرايات أمّا النجف جنب الرايات خلاّ كدا الدنيا قمرة نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، وكلّ دا وخضرة تنادي خدوا بيدي يا أسيادي بحقّ طه دا الهادي اللّي خفّض دين الكفرة نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، يا سيّد يا سيّد وقتك انظر لمحسوبتك وقتك لحسن تسبّوا خدّامتك تبقى فضيحة ومعرة نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، في وقتها السيّد يا رجال نادى وقال يا عبد العال طير كالحمامة ورح في الحال حالاً وطمّن لي الخضرة نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، وقل لها ما تخافيش من دي الهموم ما تخافيش بكره أنا أنده دراويشي يجولك في بلاد الكفرة نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، ساعة ما شافت عبد العال فوق راسها ضحكت في الحال من شدّة الأفراح يا رجال فتعجّبوا من في الحضرة نظرة يا سيّد يا جايب اليسرة، وقالوا يا ستّ النسوان يا عود قرنفل في البستان بتضحكي علشان إيه بان لأن دي أوّل مرّة نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، قالت لهم فرحي علشان زينة قصر السلطان سمعان أقعد كدا في وسط الديوان ويسمّوني الملكة خضرة نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، سمعوا كلامها يا إخواني فرحوا وقالوا سعدنا بأن ما يعلموا اللّي في الغيب كان واللّي ح يجرى لهم بكرة نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، يرجع كلامنا لعبد العال ونادى درويش

الأبطال راح دوغري للسيّد في الحال وقال له طمّنت الحرّة نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، فقال له روح يا عبد العال ناد المشايخ والأبطال وقل لهم هيّا يا رجال أنتم ودراويشكم الأخرى نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، وأنت المجاهد في الحال نادِ المشايخ والأبطال ومن لهم في الحرب مجال ليحرقوا بلاد الكفرة نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، نادِ الجميع حالاً جاوبوه عدد ما يمكنكوا تعدوه وجم على طنطا وقادوه جبنًا لكم كل العترة نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، وبعدها السيّد يا رجال نادى وقال يا عبد العال أعمل لي قهوة للأبطال واسقِ جميع من في الحضرة نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، فقال له يا سيدي إنّه نهور تقضي الجميع أو أنّه بحور دول كالمطر فوق الجسور اسقهم أنت بالمرّة نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، فقام عمل من توفيقه قهوة ملاّها في إبريقه سقى الجميع من إبريقه كل المشايخ والفقرة نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، وبعدها نادى الأقوام هيّا بنا نروح للأقوام ونجيب أسيرتنا بقوام أحسن ما تجرى لها مجرى نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، وكل شيخ لمّ جيوشه وأخوانه مع دراويشه وكلّ واحد شال شيلة قاصدين كده حرق الكفرة نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، ويرجع كلامنا بالتاني لخضرة من دا السلطاني وما جرى لها يا أخواني وما فعل ابن العاهرة نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، فلمّا جهّز دي الأفراح سمعان وقومه الكفرة اللّي ح يخزيهم الفتاح ويخلّي وقعتهم غابرة نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، بعت نده للجزّارين وقال لهم يا ابن العارفين عايز لحوم من كلّ سمين من جنس خنزير أو بقرة نظرة يا بدوي يا جايب الأسرة، وركبوا حالاً يا

فضال جابوا بهائم عال العال من كل ما يشجى الأكال لحوم
عظيمة معتبرة نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، وذبحوا منهم في آن
وبعدها نادى السلطان بالطبّاخين تسعوا في الآن وتطبخوا لنا ميت
بقرة نظرة يا سيّد ياجايب اليسرة، أمّا الخنازير دول تمانين عشان
كدا أكل السلاطين والوز ياحافظ ياأمين خلوا طبيخه للفقرة نظرة
يا بدوي ياجايب اليسرة، عزم كذا كل السلاطين وبعدها البشوات
بأمين كذا الخواجات الرزلين من كل برنيطة كبرى نظرة يا سيّد يا
جايب اليسرة، نادى المشّاط يا رجال ومشّطوا خضرة في الحال
وزيّنوها زينة عال حتى بقت مثل القمرة نظرة يا بدوي يا جايب
اليسرة، وبعد ما تمّ قوله غيّر هدومه ومنديله وبدو يفعل مفعوله
وينصب الأفعال الأخرى نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، في
وقتها السيّد يا أمير كان حطّ في بلاد الخنازير وقال لعبد العال قم
سير شوف جرى إيه في الخضرة نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة،
في وقتها راح عبد العال رأى الجميع تمّوا الأشغال وخضرة
بتنادي يا رجال هيّا انجدوني من العثرة نظرة يا بدوي يا جايب
اليسرة، ساعة ما شافها جه يا كرام زعق بحقّ قوام هيّا أسرعوا
اللوّم بقوام أحسن ح يسبولنا خضرة نظرة يا بدوي يا جايب
اليسرة، في وقتها السيد يا ناس رصّص جيوشه كالبرجاس وزعق
وقال ولله حاس لابدّ من حرق الكفرة نظرة يا بدوي يا جايب
اليسرة، هجم بجيشه على الأعداء بالليل وكان دا الوقت عشاء
ملاّ أراضيهم دماء وخلاّوقعتهم غبرة نظرة يا بدوي يا جايب
اليسرة، يا ما رؤوس خلاّها تطير وجتت بقت تأكلها الطير يقتل
ما شافوا له نظير حتى هلكهم بالمرّة نظرة يا بدوي يا جايب

اليسرة، أمّا كذا المشاط يا ناس في الحرب ما جرى لهم منّي يا ناس وأمّا سلطانهم منجاس يشخر في دمه كالبقرة نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، والأوليا ركبوا الأزيات وهدموا كل السحليّات وكسروا كل النجفات خلّوا البلاد حفرة حفرة نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، وأمّا السيّد دا المفضال دخل على خضرة في الحال وقال لها زيلي البلبال أدّيني نجيّتك من العثرة نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، ونادى للقوم الصلاح هيّا اركبوا يا أهل الإصلاح إحنا تمّينا الأفراح على الكافرين بمتين حصرة نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، وبعدها أسرع بنشاط وطار بخضرة والمشاط وكانوا قاعدين فوق البساط وخضرة فيهم كالأمرة نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، وحطّم على المقصورة ودار هلاله دي الدورة ولمّا جت ناس بتزوره شافوا الجميع قالوا أسرى نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، ونادوا حالاً للمؤذّن فوق مدنته يطلع يدن وكان كده صوته أرعن فسمعت الناس جت من برّه نظرة يا سيّد يا جايب اليسرة، جم المشايخ والخلفة وجميعهم كل الشُّرفة من البلاد يابن الطرفة وكل شيخ قام حضرة نظرة يا سيّد يا جايب اليسرة، حطّوا البساط في الدار وأسلموا المشاط العبرة وأمسكوا طبلتهم والطار وغنّوا بأصوات معتبرة نظرة يا سيّد يا جايب اليسرة، فجت لخضرة كل الناس وعندها في دي الحضرة وتعجّبوا من صاحب الكرامات صاحب الكرامات الكبرى نظرة يا سيّد يا جايب اليسرة، وبعدها يا نور العين عملت وليمة الست الزين وسيرها شاع بين الكونين حتى ملا مصر وبصرة نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، شافوا كرامات السيّد الطاهر القطب الجيّد كام

جاب أسير حتى مقيّد وكم نجد ناس من الكفرة نظرة يا بدوي يا جايب اليسرة، وكم كرامات ما تتعد وكم مرّات ما تتحد وكم له نجدات ملهاش حدّ اقرأ الكتب تنبيك خبرة نظرة يا سيّد يا جايب اليسرة، أمّا اللّي يعفي ويقول يا سلام يخرج من الدنيا بسلام دا العفو من طبع الكرام لا يأتي إلاّ من الأُمَرة نظرة يا سيّد يا جايب اليسرة، وأختم كلامي يا خلّي في مدح طه المتجلّي سيّد النبيين والرسل والإنس والجنّ الأخرى نظرة يا سيّد يا جايب اليسرة، والآل مع الأصحاب بتمام يا ربّ واغفر للأنام وأحسن ختامي على الإيمان. . فلمّا فرغ النقيب من كلامه تعجّب السادة الرجال من كلامه، وتأمّلوا في معنى نظامه، وقالوا سبحان مسبّب الأسباب، ثمّ أقبل من بعيد الأقطاب الأربعة الكبار وهم سيدي أحمد الرفاعي، وسيدي إبراهيم الدسوقي، وسيدي عبد الرحيم القنائي، وسيدي عبد القادر الجيلاني فسلّموا على الرجال، ووضعت لهم الكراسي العوال، فلمّا استقرّ بهم الجلوس، أقبل فحل الرجال الأجواد صاحب العطايا والأمداد خادم سيّد العباد وبيده قضيب خيزران ما فيه اعوجاج وبين يديه المادي ينادي يا أبا فراج. فلمّا سمعت الرجال النداء وقفوا جميعًا تأدّبًا واحترامًا حتى جلس على الكرسي أمامهم فأخذوا يقبّلون يديه حتى أمرهم بالجلوس فجلسوا ولا أحد منهم نطق أمامه بحرف، ثم إنّ الأستاذ الأكبر قرأ الفاتحة إلى سيّد البشر وأمر النقيب بقراءتها جهرًا على مسمع من الجميع، ثم قال: كل من كان له كلام آذنت له فيه بشرط أن يظهر معانيه ومبانيه، فتقدّم أحد الأقطاب الثلاثة وقال يا سلطان الرّجال هذا ابنك وخليلك نور تركته بما فيه

الكفاية فادع له بالولاية. وقام الثاني وقال ألست أنت من دعوت له بالهداية فاهتدى بإذن الله؟ وتقدّم الثالث فقال: سبق في علم الله أنّ كل شيء بقضاء الله فاطلبوا له من الله أن يكشف ضرّه وبلاه واسألوا صاحب العطايا أن يزيل عنه جميع المضرّات، فما منكم إلاّ وهو مجاب الدعوات. فقال السيّد أحمد البدوي: اعلموا انّ هذا ولدي وقد أخذ عهدي في حياته وحفظ ودّي، وأنا سألت الله العظيم ربّ موسى وإبراهيم وزمزم والحطيم أن ينصره ويكون وليًّا لله بإذنه ويكون صاحب مقام عال بين الأولياء ويقام له مولد يحضره جميع الأنام. فقال الدسوقي: اسأل الله العظيم رب موسى الكليم أن يلهم زوجته الصابرة أن الله أظلّها بليلة القدر التي هي خير من ألف شهر تكريمًا لها من دون العباد لأجل أن تدعو لزوجها بالولاية فيستجاب لها. ثم إنّ السلطان نفض المنديل فانفضّ المجلس وذهب كلّ منهم إلى حال سبيله.

٤

صفاء

بعد ستة أشهر من رحيل حفني، انقلب حال صفاء؛ أحسّت بذلك صديقة ومحاسن وصارتا ترقبانها، فجأة خلعت الأسود ولبست الملوّن المحزّق، وحطّت في وجهها الأحمر والأزرق والأخضر ونزلت الشارع. كانت تغيب طويلاً وإذا سألاها أين كانت تجيب بنزق: «أنتو مالكو خلّيكو في حالكم». سلّطت صديقة ابنها نصر يراقب زوجة خاله ويعرف قرارها. لم يكذّب نصر خبرًا، وأوّل ما طلعت من البيت انسلّ ومشى وراءها. كانت صفاء ترتدي فستانًا قصيرًا ومحبوكًا على وسطها وردفيها. وراقب نصر جسد زوجة خاله وهي تمشي أمامه، كان ملفوفًا ومدملكًا ولدنًا، ليس به عضلة واحدة، كان ردفاها يترجرجان كلّما خطت خطوة بحذائها ذي الكعب العالي. يغمغم نصر: حدّ يموت ويسيب الفرس ده! تركت صفاء بولاق الدكرور وطلعت كوبري همفرس ونزلت الناحية الأخرى، ومشت في شارع السودان باتجاه شارع جامعة الدول العربيّة، وفي أحد الشوارع الجانبيّة صعدت إحدى العمارات. وكما يحدث في الأفلام المصريّة، فقد

أخرج نصر علبة سجائره وتقدّم من البوّاب وناوله سيجارة وجلس بجانبه على الدكّة الخشبيّة، وسأله عن التي دخلت لتوّها. قال البواب إنّها تعمل في الشقّة المفروشة في الدور السابع، وأنّها ستّ غلبانة وتجري على أيتام. نصر قدّم لأمّه تقريرًا كاملاً عن زوجة خاله مشفوعًا بقوله: يامَّه الوليّة حلوة وبتشتغل في الشقق المفروشة، وما أدراكِ باللّي بيحصل فيها. نصر راقب الباب طول الليل حتى ظهرت زوجة خاله ودخلت حجرتها، ومن فتحة المفتاح استرق النظر إليها وهي تخلع هدومها، أحسّ أنّها تتطوّح وهي واقفة فعرف أنّها سكرانة، خلعت كل هدومها ووقفت عارية تمامًا ثمّ ارتدت قميص نومها على اللحم ورمت بنفسها على السرير. نصر جُنَّ من منظرها فدفع الباب برجله، ولدهشته انفتح. ردَّه وراءه وطوّح بجسده فوقها، كانت راقدة على بطنها وأحسّت بجسده يضغط على مؤخرتها، ولم تكن تعرف أنّه نصر فاعتدلت وقاومت قليلاً، ولمّا كانت متعبة وشبه نائمة وغائبة عن الوعي، فقد استسلمت لهجومه الملحّ وتركته يفعل بها ما يشاء.

٥

صفاء ونصر

اختلقت صفاء خناقة مع صديقة من دون سبب، ولمّت هدومها وتركت البيت؛ وصديقة كسرت وراءها قلّة وقالت: خالتي وخالتك واتفرّقوا الخالات، واللّي كان لينا عندك افتكره الله وخده من وجهك، جبتي له العار في حياته ومماته. ونصر قال لأمّه لو مشت امرأة خالي ها أسيبلك البيت أنا الآخر. قالت صديقة ليه يا واد هي كانت من بقيّة عيلتك ولا تكونوش رفق، ما هي لبوة وتعملها. نصر لم يكذّب خبرًا وترك البيت، وأمّه قالت له الداهية اللّي تودّي. وغاب شهرًا ولا حسّ ولا خبر، وقلبها أكلها عليه فسألت أصحابه عنه. أحدهم قال لها على الفولة وقشرتها، ابنك عايش مع امرأة خاله في شقّة واحدة. صديقة عقلها طار فذهبت إلى عمّتها بديعة: المَرَة خطفت الواد وبينام معاها كل يوم الهايجة، أعمل إيه ياختي شوري عليَّ. بديعة قالت: كلّ فرج مكتوب عليه اسم ناكحه، دا وعد ومكتوب ياختي، وابنك راجل مش ها يخسر حاجة. مصمصت صديقة شفتيها: من ناحية هايخسر هايخسر صحّته وعافيته وشبابه، دا جوزها الله يرحمه ماخدش في إيدها غلوة. صديقة سلّمت أمرها

لله وقالت عليه العوض فيك يا نصر، وأنتِ يا صفاء يا بنت حوّا وآدم إلهي ما تكسبي ولا تربحي ويورّيني فيكِ يوم قادر يا كريم. ونصر قال لصفاء بلاش الشقق المفروشة دي بقى وأنا مش ها أخلّيكي تحتاجي حاجة خالص. قالت صفاء إسمع يا روح أمّك أنت مش جوزي تتحكّم فيَّ، ثم أنت قاعد نايم وآكل شارب منين، ما هو من شغلي، ولمّا بتعوز تركب بتركب، بقولك لأ؟ يعني مش حرماك من حاجة، يبقى عاوز إيه تاني. نصر أطرق برأسه إلى الأرض وسرح قليلاً ثم نظر إليها وقال: يعني لو أتجوّزتك تقعدي من شغلك؟ طب ونأكل منين، قالت وأخذت في ارتداء هدوم الخروج. سيبيني أدبّرها بمعرفتي. وصفاء في طريقها لمحلّ عملها أخذت تفكّر في عرض الزواج بجدّيّة وتأخذ وتعطي مع نفسها، خاصّة بعد ما حدث معها بالأمس، الشقّة التي تعمل بها تؤجّر مفروشة للعرب، خاصّة السعوديّين وهم يؤجّرونها بخادمتها، شرط أساسي، وهي خادمة بالاسم فقط، أمّا مهنتها الحقيقيّة فهي الدعارة، عرفت ذلك من أوّل ليلة قضتها في الشقّة، واكتشفت أنّ قضاء ليلة في حضن أحدهم يؤمّن لها قدرًا من النقود لا بأس به، ثم أنّه أسهل من أيّ عمل آخر علاوة على ما به من متعة، مؤجّر الشقّة سعودي يدعى عتيق، أمس جاء وبرفقته شابّان سعوديّان، وأرادوا تمضية السهرة في الشقّة، اتصل عتيق بفتاتين يعرفهما، إحداهما تعمل راقصة في ملهى ليلي بوسط البلد، والأخرى ممرّضة في مستشفى. جاءت الفتاتان وأصبحن ثلاثة، أحضر عتيق كباب وكفتة وصندوق بيرة وبعض زجاجات الويسكي الفاخر لزوم السهرة، وكان مع إحدى الفتاتين قطعة حشيش أخرجتها وصارت تلفّها في السجائر وتوزّعها علينا،

واختار كل واحد واحدة منهنّ وبدأت السهرة. كانوا في عزّ المعمعة حين سمعوا خبطًا ورزعًا على الباب شديدين، ارتعبت البنات وانكمشت كل واحدة منهنّ في بعضها وقد أيقنّ بالهلاك، فهذه الأيدي الثقيلة من المؤكّد أنّها أيدي رجال الشرطة، والنتيجة معروفة لهنّ، قضيّة آداب لهنّ، بينما الرجال يصبحون شهودًا عليهنّ. المهمّ بعد أن أفقن من صدمة المفاجأة الأولى جرين عرايا واختبأن بجوار السلّم الخلفي للعمارة والمسمّى بسلّم الخدم وأغلقن بابه، وانتظرن ما سوف يحدث! كان الظلام شديدًا، والخوف جعل أجسادهنّ العارية ترتعد، سمعن أصواتًا عالية وأقدامًا تهرول، وتوقّعن قدومهم ناحيتهنّ وإخراجهنّ وهنّ على هذه الحال بلا ملابس عرايا كما ولدتهنّ أمهاتهن. بعد لحظات هدأ كل شيء وما عدن يسمعن أيّ صوت، ولا يدرين ما الذي حصل بالخارج، وأخذن يضربن أخماسًا في أسداس، فواحدة همست: لعلّهم لم يكتشفوا شيئًا فمضوا. والثانية قالت: لعلّهم أخذوا الشبّان معهم واكتفوا بذلك. أمّا هي فتساءلت كيف يحدث ذلك وهدومنا مرميّة في كل ركن في الشقّة وحتى ملابسنا الداخليّة، وزجاجات البيرة والويسكي وسجائر الحشيش، كل هذا يدلّ علينا ويفضح وجودنا. وصارت كل واحدة تستحضر في ذهنها ما سوف تقوله إذا ما تمّ القبض عليها وهو أمر لا بدّ منه.. ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان، فقد انفتح باب سلّم الخدم وظهر على عتبته عتيق يمسك في يده هدومهنّ فرماها لهنّ، وأشار بأن يرتدينها دون خوف، ثم أشار لهنّ بالدخول فدخلن، ورأين ضابطًا برتبة نقيب يقف في وسط الصالة مع الشبان.. وعلى ما يبدو كان يتكلّم كلامًا وديًّا ويضحك. تعالوا يا بنات مفيش حدّ

غريب، قال عتيق وأخذ يقدّمهنّ إليه، صفاء، تحيّة، سماح، النقيب عوّاد، جاء للقبض علينا طلعنا أصحاب. النقيب عوّاد قرّر أن يسهر معنا، واختار صفاء لتكون بصحبته طوال السهرة، ومضت الليلة على خير. كانت المرّة الأولى التي تواجَه فيها بهذا الموقف، وما رأته على وجهي الفتاتين من خوف ورعب، أصابها هي نفسها بالخوف والرعب؛ قالت لها إحداهنّ: لو كان قبض علينا كنّا شفنا الذلّ، أنا قبض عليّ ذات مرة، وكانت مرّتي الأولى، ضبطت في شقّة في محلّة السرايات، وهذه المنطقة تابعة لقسم بولاق الدكرور، وما أدراك ما هو قسم بولاق الدكرور! يعني تحتجزين أسبوعًا كاملاً على الأقلّ في القسم، ويزفّونكِ وأنتِ داخلة الحجز، ولو كرمك ربّنا ومدخلتيش الحجز هاتقعدي في النوباتشيّة، ودي أسخم وأذلّ، طول الليل يفعص في جسمك أيّ مخبر أو أيّ أمين شرطة أو حتى ضابط.. كلّه بيفعص، وكله عاوز ينام معاكِ قبل ما يتمّ ترحيلك، وإذا نطقت بكلمة يا ويلك ويا سواد ليلك، من ضرب لشتيمة، ويا قلبي لا تحزن! يعني بهدلة وقلّة قيمة وقضيّة دعارة تحملينها طول عمرك. فكّرت صفاء في كل ذلك، وقالت لنفسها مش كلّ مرّة تسلم الجرّة، ويا بنت ظلّ راجل ولا ظلّ حيط. وحين عادت إلى البيت، قالت لنصر: يالله بِينا دلوقت على المأذون لو لسّه عاوز تتجوزني. نصر نظر إليها بحرج وكسوف: دا يوم المنى، بس يا ريت نأجّلها لبكرة، أصل معاييش فلوس المأذون. صفاء أخرجت لفّة نقود من حقيبة يدها وضعتها في يده، وقالت الفلوس أهي، هو أنا وأنت إيه، بس سايقة عليك النبي ما تجيب سيرة لأمّك دلوقت، أنا مش ناقصة جراسة وفضايح، مؤقتًا يعني.. ومصيرها تعرف.

٦

لاقت روايتي الأولى (كتاب التوهّمات) نجاحًا ملحوظًا، واستقبلها الوسط الأدبي بترحاب وحفاوة كبيرين، حتى أنّ البعض كتب عنها باعتبارها كتاب الموتى الحديث، مقارنًا بينها وكتاب الموتى الفرعوني.. ولهذه الرواية حكاية، كانت أمّي قد توفيت في خريف عامها الثاني والثمانين بعد رحلة مضنية مع المرض حيث أصيبت بفشل كلوي، وكان عليها أن تقوم بعمل غسيل بريتوني مرّتين في الأسبوع، لم تغسل سوى مرّة واحدة فقط ولم تتحمّل الثانية. عشت معاناتها مع المرض بكل آلامه وعذاباته، كما عشت لحظات احتضارها وموتها. كانت المرّة الأولى التي أتعرّف على الموت عن قرب، بل وأواجهه وجهًا لوجه وهو ينتزع من بين يديَّ وبشراسة أجمل كائن إنساني أحبّه قلبي: أمينة مرشد، اسم لن أنساه مادام قلبي ينبض بالحياة، وإذا مدّ الله في أجلي، فسوف أكتب عنها رواية أسمّيها هكذا: سيرة أمينة مرشد. كنت أفكّر بعد رحيلها طوال الوقت أن أكتب عنها، وأحكي قصّة موتها كما لم تُحْكَ القصص من قبل، كنت أعيش اللّحظة أينما كنت أو ولّيت وجهي، وكان التحدّي الذي يواجهني ليس أن أكتب هذه القصّة، ولكن كيف؟ كنت أريدها أجمل وأعظم ما كُتب أو سوف يكتب عن الأمّ. في أحد الأيّام كنت أجول في

أحد الحقول المزروعة في بولاق الدكرور قبل أن تداهمها العشوائيّات، فقد كانت قطعة من الريف داخل القاهرة، وبينما أنا سارح في البريّة فوجئت بنفسي أردّد مفتتح القصّة التي لم أكتبها بعد حتى حفظته، كان يقول: إلى أمّي الراقدة في حضن أمّها الأرض، مبتسمة كما يبتسم طفل ليس به ألم، مستغرقة في سنة من النوم، يداها على صدرها الهادئ تنامان في دعة وسكون.
كان هذا المفتتح هو بداية ثلاثيّة موت أمّي، التي ظهرت ضمن مجموعة حكايات الديب رمّاح، وفي كتاب (التوهّمات) كانت هي البداية المناسبة للكتاب، أدركت أنّ حقبة كاملة كانت قد ولّت وإلى الأبد، وأنّ هذا الجيل كلّه يوشك أن يستسلم لموته مع من مات: نور الذي يريد أن يصبح وليًّا من دون جدوى، أم حفني التي أضحت أسطورة موتها المتكرّر تروى جيلاً بعد جيل، حفني الذي ناضل نضالاً معجزًا مع مرضه، محمد عبدون الذي ترك بصماته على جسد صفاء ومضى، وحتى أمّي التي كانت في وقت من الأوقات جزءًا من هذه الأحداث.. أمّا من بقي منهم، فقد دخل القرن الجديد بلا هويّة. محاسن توحّدت بعنوستها وبدأ ماء الحياة يجفّ في بدنها فتذوي بلا أمل في النجاة من مصيرها المحتوم، صفاء التي رفضت حياة الشرمطة فتزوّجت نصر ابن صديقة، وصديقة التي أحسّت أنّ زواج ابنها الكبير من لبوة، كما كانت تحبّ أن تطلق عليها، مصيبة وحطّت على رأسها، أمّا بديعة، فقد دخلت في شرنقتها الخاصّة وتوحّدت مع نفسها.. لم أعد أراها، لكنّي كنت أسمع عن أحلامها وهلوساتها المتعلّقة بنور وإصرارها على إقامة ضريح له بأيّة طريقة. وفي تلك المرحلة، كان اهتمامي بالموروث الشعبي قد وصل إلى حدّ

الهوس المبالغ فيه، كنت أحاول فهم كيف يفكّر الناس البسطاء ودراسة معتقداتهم الشعبيّة، وهو ما قادني لدراسة ظاهرة الأولياء في مصر، أو كما أسماهم محمد فهمي عبد اللطيف دولة الدراويش في مصر، وهي ظاهرة استغرقتني طوال الصيف. فمصر هي أكبر بلد في العالم وفيها هذا الحشد الهائل من الأولياء.
ساعدني كثيرًا كتاب الدكتور محمد الجوهري المسمّى علم الفولكلور وخاصّة في جزئه الثاني الخاصّ بدراسة المعتقدات، أمّا الكتب التي تعرض تجلّيات الظاهرة كتراجم لحياة هؤلاء الأولياء فهي كثيرة، أذكر منها: حلية الأولياء لأبي نعيم، جامع كرامات الأولياء للنبهاني، نزهة العيون النواظر وتحفة القلوب الحواضر لعفيف الدين أبي السعادات، عمدة التحقيق في بشائر آل الصدّيق للشيخ إبراهيم العبيدي، الإبريز في مناقب سيدي عبد العزيز، اللّمع للطوسي. ثم كتب المتصوّفة أنفسهم مثل أخبار الحلاّج وطواسينه، مجموعة مصنّفات شيخ إشراق للسهروردي المقتول، وابن عطاء الله السكندري، المكنون في مناقب ذي النون للسيوطي، منطق الطير لفريد الدين العطّار ثم مجموعة القصص الشعبي التي تتغنّى بحياة وكرامات هؤلاء الأولياء مثل: قصّة سيدي أحمد البدوي، أيضًا قصّته مع فاطمة بنت برّي، قصّة الأميرة خضرة الشريفة وما جرى لها في بلاد النصارى وكرامة السيّد البدوي حين أتى بها، قصّة سيدي إبراهيم الدسوقي وما جرى له من العجائب والغرائب والكرامات نظم ولي الله المجذوب الشيخ طاهر بن يعقوب. كما أنّ له قصة أخرى بعنوان سيدي إبراهيم الدسوقي وما جرى له مع العلماء. ومن خلال كلّ هذه الكتب أمكنني استخلاص قائمة بأشهر الكرامات التي يقوم

بها الأولياء: إحياء الموتى، تجفيف البحر والمشي على الماء، القدرة على تحويل الأشياء إلى صورة أخرى، طي المسافات، الطيران في كل الأوقات، مخاطبة الحيوانات والأشجار والجماد وكل عناصر الطبيعة، شفاء جميع الأمراض، التواجد في أكثر من مكان في وقت واحد، توقيف الوقت، التنبؤ بالغيب، القدرة على تحويل شكله في الهيئة التي يختارها. . سحرتني وبهرتني تلك المقدرة غير المحدودة التي يتمتّع بها هؤلاء الرجال المؤيّدون بعناية الله، وما يأتون به من عجائبيّة وسحريّة. . تراث هائل مترع بالغرائبيّة. أليست هذه واقعيّة سحريّة؟

٧

في أحد صباحات بولاق الدكرور المبكرة، فوجئ الناس بنشاط غير عادي يحدث! مكان السوق في شارع ترعة زنين تمّ تنظيفه وطرد الباعة القائمين به، وتمّ رصف الطريق الرئيسيّ في زمن قياسيّ، كما زرعت الأشجار على جانبي الطريق ووضعت أصص الزهور ونباتات الزينة، قيل إنّ الموكب الرئاسيّ سوف يمرّ من هذا المكان في طريقه إلى افتتاح مصنع للأدوية تابع للقوّات المسلّحة، وقيل إن هذا الطريق سوف يكون معبرًا لطريق مصر - الاسكندريّة الصحراوي اختصارًا للمسافة.. لكنّ الحقيقة التي عرفت بعد ذلك أنّه تقرّر إقامة ضريح لولي الله الشيخ نور الدين في هذا المكان. كيف حدث ذلك؟ لا أحد يعلم، فقط بديعة كانت تعلم ما حدث وما سوف يحدث. ابتسمت وأشارت بيدها معلّقة: بلطجي في حياته وفي مماته ويعملها!! كان الاهتمام على أعلى المستويات، من وزير الأوقاف إلى مشيخة الأزهر إلى المحافظ فرئاسة الحيّ. المشكلة التي واجهت الجميع هي عدم وجود مكان يصلح لإقامة مثل هذا المشروع الذي أراد له الجميع، ولأسباب سياسيّة، أن يكون ضخمًا ودعائيًّا، ولم يكن هناك أصلح من جنينة باسيلي مكانًا للمشروع.

جنينة باسيلي

إذا قسمنا بولاق الدكرور كلّها إلى ثلاثة أقسام رئيسيّة بحسب الخريطة الجوّيّة التي اعتمدها الفرنسيّون، فإنّ جميع المنطقة وما يقع في زمامها تندرج تحت ما يسمّى بمشيخة بولاق الدكرور، وهي ذات شوارع رئيسيّة ثلاثة: أول هذه الشوارع وأقدمها هو شارع همفرس، بناه الخواجا همفرس مهندس الريّ في عهد الملك فاروق، وبنى في نهايته جنينة شهيرة والتي سمّيت باسمه، وفي الجنينة بنى قصرًا سمّي بقصر الملذّات كان الملك يزوره متخفّيًا كي يحظى بافتراع العذارى، اللاّتي كان يجلبهنّ من شتّى أنحاء المعمورة معرسه الأشهر أنطوان بوللي. ظلّ القصر والجنينة قائمين مكانهما بعد قيام الثورة إلى أن قدمت إلى الدنيا فقدّر لي رؤيتهما من الداخل، وتلك حكاية تروى باختصار: ذات مرّة كان أبي، البنّاء، يبني سورًا في منطقة النزهة والتي تقع في نطاق جنينة همفرس، وكعادته كان يأخذني معه في المسامحة (أي الإجازة المدرسيّة) كي أتعلّم الصنعة لأنفع نفسي مثل جميع اخوتي، لكنّي كنت أفضّل اللعب على أيّ شيء آخر، والموضع الذي كان أبي يبني فيه يقابله أحد أجزاء سور الجنينة، كان متهدّمًا، ووضع بدلاً منه سور من السلك الشائك، كنت أغافل أبي وأعمل بيدي في

هذا السور حتى نجحت في فتح ثغرة تكفي لمرور جسدي الضئيل منها، وتسلّلت إلى داخل الجنينة في غفلة من الحرّاس والكلاب وحتى الجنّ والعفاريت الذين أعلم علم اليقين أنّ الجنينة مسكونة بهم، ورأيت أمامي فاكهة الحلم، فكثيرًا ما كنت أحلم بثمرة مانجة بطول بيتنا وعرضه، أجلس فوقها وأدلدل ساقيّ ومعي سكّين أقطع بها لحم المانجة وآكل ولا تنتهي، أو أصابع موز الواحد منها بِطولي. رأيت فاكهة من نوع آخر، ليست كتلك التي كانت تشتريها أمّي من المرأة العجوز التي تجلس على ناصية حارتنا. ولأنّني كنت خائفًا جدًّا ومرعوبًا جدًّا، فقد امتدّت يدي إلى أقرب الثمار إليّ وأخذت أقطف من على الشجرة وأعبّئ جيوبي وعبّي، كانت ثمار كوكا غير ناضجة.. ومضيت بسرعة مغادرًا الجنينة على أمل الرجوع إليها مرّة أخرى، لكن هذا ما لم يحدث على الإطلاق. شارع همفرس يقع في المنتصف تمامًا من بولاق الدكرور، وهو يمتدّ طوليًّا من أوّل شارع السودان حتى طابق الدبابة، ليتقاطع مع شارع ترعة زنين الذي يلفّ بولاق من الناحية الجنوبيّة حتى يصل إلى شارع التحرير، امتداده الطبيعي، يفصلهما كوبري يسمّى كوبري الخشب، وهو ثاني الشوارع الثلاثة؛ أمّا الثالث فهو شارع ناهيا والذي يمتدّ من شارع السودان وجامعة الدول العربيّة حتى قرية ناهيا وكرداسة، ويلفّ بولاق من الناحية الشماليّة. تقع جنينة باسيلي في الناحية الجنوبيّة من أوّل شارع ترعة زنين، من هو باسيلي؟ ومن أين جاء؟ لا أحد يعلم. قيل إنّه الجندي الوحيد الذي نجا من مذبحة القلعة، وإنّه هرب إلى أحراش بولاق ليختبئ في الزراعة، وبعد موت محمد علي

ابتنى لنفسه قصرًا وألحق به جنينة وأحاطهما بسور عال لا يكشف ما خلفه، وقيل إنّه تزوّج من بولاق بأربعة فتيات أبكار افترعهنّ في ليلة واحدة، وإنّ زوجاته ما كنّ يحبلن إلاّ توائم فكنّ ينجبن في البطن الواحدة ثمانية أطفال، قيل إنّ عدد أبنائه تجاوز المائة، وقيل إنّ جائحة الكوليرا حصدتهم جميعًا وبقي القصر والجنينة مهجورين يسمع فيهما عزيف الجن والعفاريت حتى تسلّمتهما وزارة الأوقاف بعد الثورة. وفي رواية أخرى أنّ باسيلي باشا الكبير التركي الأصل، كان متزّوجًا بامرأة حلبيّة لم يخلق الله أجمل منها، تصغره بعشر سنوات، كان يعشق التراب تحت قدميها ويغار عليها من الهواء الطائر. وحدث أن كان لهذه المرأة أخ من الأم ترك بلده وحاله ومحتاله وجاء للإقامة مع أخته، كان يعشقها ولا يصبر على فراقها، وكانت هي أيضًا كذلك، فقد نشأا معًا وتمكّنت المحبّة في قلب كلّ منهما، وكان باسيلي باشا لا يجد غضاضة من أن يعيش هذا الشاب مع أخته، على الرغم من إتيانهما أفعالاً لا تحدث بين الأخ وأخته، كأن يقبّلها في فمها أو يتحسّس جسدها أو ينظر إليها نظرة رجل لامرأة. ولسلامة نيّته كان يستبعد حدوث الفاحشة بينهما، وفي أحد المرّات كان مسافرًا إلى الشام لعمل يتغيّب فيه بضعة أيّام، وفي منتصف الطريق تذكّر أنّه نسي أوراقًا هامّة لابدّ من وجودها معه لإتمام عمله فرجع للإتيان بها، ودخل قصره واتجه إلى حجرة مكتبه، وكانت حجرة نومه مجاورة لها فسمع أصواتًا وأنينًا مكتومًا آتيًا من حجرة نومه، فتسحّب شاهرًا مسدّسه ودفع الباب فوجد زوجته في حضن أخيها على فراشه عاريين، فما كان منه إلاّ أن أفرغ

رصاص مسدّسه في قلبيهما فماتا للتوّ وفي اللحظة. وحدث بعد ذلك أنّ الناس كانوا يسمعون صراخًا وهلوسة طوال اللّيل آتية من ناحية القصر، فقيل إنّ شبح المرأة وأخيها القتيلين كانا يظهران للرجل كل يوم ويفعلان أمامه ما كانا يفعلانه في حياتهما، فكان يصرخ كلّما رأى ذلك حتى انخبل عقله وصار مجنونًا.. إلى أن مات. وبقي القصر مهجورًا حتى وضعت وزارة الأوقاف يدها عليه.

المهندس الذي وقع الاختيار عليه لإقامة البناء اختير على الفرّازة، كان الأوّل في مسابقة حضرها ألف ومائتا متسابق، قدّم «ماكيت» بالبناء كاملاً، شرح فيه التكلفة والأدوات والخامات المستخدمة، قال إنّه اطّلع على جامع الملك الحسن الثاني بالدار البيضاء، تحفة معماريّة حديثة، وعلى مقام الإمام البخاري بسمرقند، وأيضًا قبر الأمير تيمورلنك، ومسجد آياصوفيا بإسطنبول، وعلى الجامع الأموي بدمشق. . قال إنّه سوف يبني المسجد الجامع وبين عينيه هذه النماذج الرائدة، قال إنّه سيختار من كلّ نموذج أفضل ما فيه، ويضيف إليه أفضل ما عنده.

سوف أترك المهندس يتمّ بناءه على راحته، وإلى أن يتمّه سأحدّثكم عن أغرب ما يمكن أن يحدث لإنسان: تزييف تاريخه. نعم، فقد تمّت أغرب عمليّة تزييف لتاريخ إنسان على مرأى ومسمع من الجميع، بل إنّ الجميع شاركوا بشكل أو بآخر في هذه العمليّة. أنا وأنتم نعلم تاريخ نور وأصله وفصله من منشأه حتى وفاته، وأنّه اعترف بلسانه في الورقات التي تركها بأنّه «حرامي وعاصي وكذّاب»، لكن السيّد نور الدين أصبح بين يوم وليلة قطب الأقطاب وعمدة العمد والأنجاب، صاحب الإرشاد والجود، وقطب دائرة الشهود أبو الكرامات السيّد نور الدين

الدكروري ـ نسبة إلى بولاق الدكرور التي نشأ بها ابن السيّد عبد الرحمن بن السيّد علي قريش بن السيّد محمد الشهير بأبي النجّار ابن السيّد زين العابدين بن السيّد عبد الخالق بن السيّد محمد الشهير بأبي العينين ابن السيّد أبي الطيّب بن السيّد محمد الكاتم بن السيّد محمد الجواد بن السيّد موسى الكاظم بن السيّد جعفر الصادق بن السيّد محمد الباقر بن السيّد علي الزاهر بن السيّد علي زين العابدين بن الإمام السيّد الحسين بن الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه من السيّدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها بنت رسول الله ﷺ. وهي الورقة التي علّقت فيما بعد فوق ضريحه تعريفًا بنسبه الشريف، كذلك فقد أصبح صاحب الألقاب الشهيرة: العارف بالله، الصامت، الباكي، قاضي المظالم، حامي حمى بولاق، وليّ الله، كعبة الزوّار، دليل الحيران، وندهة المنضام، أبو الرايات. الأغرب من كل ذلك، فإنّ نتفًا وعناصر من القصص الشعبي الذي يدور حول مولده الشريف وكراماته بدأت تتجمّع لتكوّن ما يشبه السيرة الشعبيّة، وقد وقع بيدي نصّان يتحدّثان عن سيرة نور الدين أحدهما شعري والآخر نثري. النص الشعري بعنوان: نزهة المشتاقين في قصّة سيدي نور الدين؛ والآخر النثري بعنوان: قصّة سيدي نور الدين الدكروري، البحر العجاج المتلاطم بالأمواج دليل الحيران سيدي نور الدين الدكروري، وهي تشتمل على ولادته الشريفة وما أظهر فيها من الكرامات الباهرة، بالتمام والكمال والحمد لله على كل حال. النصّان الشعري والنثري ليس بينهما اختلاف كبير، بل إنّهما يكادان يتطابقان، والرواية الشعبيّة لكلٍّ منهما تتجاوز الألف صفحة، لذلك فهي تعدّ من أكبر سير الأولياء. على أنّني سوف

ألخّص الخطوط العريضة للنص النثري، حيث يقول: إنّ أمّه وقت مولده كانت في الستّين من عمرها، وقد أظهر بعض كراماته قبل أن يولد بزمن، إذ ظهر لأمّه في صورة صقر وحماها من الاغتصاب وهي فتاة قبل أن تتزوّج، وكان مولده في شهر رمضان، ولم يكن يرضع إلاّ بعد أذان المغرب، وقد عرف هذه الحكاية أهل المنطقة، فكانوا إذا شقّ عليهم معرفة وقت أذان المغرب يلجأون إلى أمّه وينتظرون حتى يبدأ الطفل الوليد في الرضاعة، وبعد أن كبر قليلاً كانت الأرواح تحرسه في غدوه ورواحه وأينما توجّه، وحدث له وهو في السابعة عشرة من عمره أن تحدّث مع ثور ـ فقد أوتي القدرة على مخاطبة الحيوانات ـ وعلم من الثور أنّه ليس عاديًّا كسائر الناس، فجرى إلى البيت وهو شديد الاضطراب والخوف، وشاهد في تلك اللحظة جبل عرفات والحجيج يقفون عليه. في الثامنة عشرة من عمره رحل عن مسقط رأسه بولاق الدكرور سوّاحًا في بلاد الله، وقبل رحيله وعد أمّه أنّه لن يكذب أبدًا مهما حصل، وقصد بغداد، وفي الطريق تعرّضت العربة التي يستقلّها إلى بعض قطّاع الطرق، وأخبر نور الدين رئيس العصابة أنّ معه نقودًا كثيرة مخبّأة في ملابسه، وكان من أثر هذا الصدق أن ندم رئيس العصابة ومن معه وتابوا على يديه. عاش نور الدين حياته متصوّفًا زاهدًا متعبّدًا، لم يكن يشرب الماء أبدًا ـ وهي إحدى كراماته ـ ولم يأكل لحم الطير أو الحيوانات، وقبل موته بوقت قصير عيّنه الخضر عليه السلام قطبًا. أمّا حكايته مع العلماء فمعروفة، ذلك أنّ بعض زملائه من العلماء حسدوه على المكانة الرفيعة التي وصل إليها فأرادوا امتحانه، لكنّهم ما إن ظهروا أمامه حتى شلّت ألسنتهم

وعجزوا عن الكلام. لكن نور الدين أظهر كرامة أخرى في الوقت نفسه، إذ استطاع أن يقرأ أفكارهم ويعرف الأسئلة التي كانوا ينوون توجيهها إليه، علاوة على ذلك فقد أجاب عليها جميعًا فبهت القوم. ومن كراماته أنّ الأشياء كانت تتحوّل في يده، ومن ذلك أنّ أحدهم أهداه ذات مرّة تفّاحة فنظر إليها فتحوّلت في يده إلى عفن ودم، ومرّة أخرى تحوّل الذهب في يده إلى دم عندما ضغط عليه بشدّة، وممّا يروى في السيرة أنّه لم ينم الليل أبدًا، وأنّه كي لا ينام كان يقف طوال الليل على رجل واحدة، وكان يشكّل جسمه كيفما شاء فيطول ويقصر ويختفي وهو بين الناس فلا يراه أحد، كما كان يطير إلى الكعبة أثناء الليل، حيث يصلّي ويطوف ثم يعود في اللحظة نفسها، كما أنّه أظهر كرامة التواجد في أكثر من مكان في الوقت نفسه. تنتهي سيرة ولي الله الشيخ نور الدين عند وفاته، فتقول إنّه لقي ربّه في ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان المبارك، وإنّ الملائكة نزلت في ليلة القدر إلى السماء الدنيا لتزفّه إلى بارئه.

* * *

قرأت مرة لأحد الباحثين أنّ أولياء الله الصالحين في مصر، ما هم إلاّ آلهة مصر القديمة، وأنّ المصريين أحفاد الفراعنة مازالوا يمارسون طقوسهم الفرعونيّة تجاه الآلهة القديمة المتمثّلة في أضرحة الأولياء ومقاماتهم، وقال آخر إنّ الكثرة الهائلة من أضرحة لأولياء ينتشرون في كل شبر على أرض مصر، هي إشارة إلى جسد أوزوريس الذي تفرّق أشلاء في كل الربوع، وأيًّا كان هذا الكلام صحيحًا أم خطأ، فإنّ للمصريين طريقتهم الخاصّة في

الحياة واستيعابهم للوافد والجديد والتعامل معه، وهو ما جعلهم يستمرّون كأقدم شعوب الأرض حضارة وتاريخًا. وقال أبي نقلاً عن غيره: لو استعقدتم ـ يقصد اعتقدتم ـ في حجر لأفاد؛ وروى حكاية تدلّل على صحّة كلامه، فقال: أصيب رجل بمرض لا شفاء منه، وظلّ يتألّم مدّة من الزمن، وفي أحد الأيّام، وكان على سفر، مرّ بمكان قفر، فوجد رجلاً جالسًا القرفصاء يقضي حاجة، فوقف بعيدًا عنه بحيث لا يراه، فلمّا انتهى الرجل من قضاء حاجته استبرأ بقطعة حجر ثم طوّح بها بعيدًا، فقال الرجل المريض إنّ قطعة الحجر هذه فيها شفائي، وجرى على قطعة الحجر وأمسك بها ووضعها على مكان الألم فزال مرضه في الحال. وهي إشارة واضحة لصحّة الاعتقاد، حتى ولو كان هذا الاعتقاد في حجر، فما بالك بالأولياء؟

لم أجد إشارة واحدة في سيرة نور الدين عن زوجته بديعة، وربما كان هذا مثيرًا للدهشة، فقد كانت هي أوّل من اكتشف ولايته، وهي أوّل من صدّقه، كما أنّها ظلّت طوال سنوات طويلة تلحّ على المسؤولين وكل ذي شأن من أجل إقامة ضريح له، فكيف حدث ذلك؟ لست أدري! وفي تصوّري أنّ هذه المرأة بإيمانها بزوجها، ودعوتها له، وكلّ هذا الصبر والتحمّل، وتجاهل الآخرين لها واتهامهم إيّاها بالخرف، كل هذا أدعى لأن تكون أحقّ بالولاية من زوجها. وقد عاشت حتى رأت بعينيها وضع حجر الأساس للجامع والمقام، وكانت آخر كلماتها: لا تدفنوني بعيدًا عن شيخي نور الدين.

* * *

عاشت بولاق الدكرور أزهى عصورها في كنف الجامع الكبير بمقامه الفاخر وأضوائه المتلألئة التي أضفت على المكان أنوارًا وفيوضات، كان الجامع الذي اكتمل بناؤه قد أصبح تحفة معماريّة تحقّقت فيها الأصالة والمعاصرة بأفضل تجلّياتها، فالسور الخارجي المفضي إلى الجنينة لفّه سياج من الأشجار المتماثلة في الحجم والطول والكثافة أخذت أشكالاً هندسيّة مختلفة، والجنينة الأماميّة بنباتاتها العطريّة الكثيفة وأزهارها الملوّنة وشذى رحيقها المسكر كانت جُنّة للأبصار، تتوسّطها نافورة مياه على هيئة سباع تخرج من أفواهها مياه تصبّ في فسقيّة، أمامها ثلاثة سلالم رخاميّة معشقة بألوان الفسيفساء تفضي إلى بهو أعمدة الجامع الشاسع المسافات، السقف ذو القباب الثلاث شاهقة الارتفاع بزجاجها المعشّق بألوانه المبهجة لحظة سطوع الشمس وانعكاسها بألوان الطيف، الأعمدة الرخاميّة السامقة التي تحمل القباب، ثلاث مآذن سامقة شاهقة الارتفاع لا يرى نهايتها المتماهية في السحاب، بنيت على غرار مآذن العصر الفاطمي، المنبر المشغول من خشب الأبنوس المطعّم بالصدف والعاج على هيئة أرابيسك دقيق الصنعة، ثم القبلة ذات النقوش البديعة والخطوط الهندسيّة وتماهيها مع الفراغ في صراع مع الكتلة؛ وعلى الجانب الأيمن

من الباب الرئيسي للجامع، الحجرة التي بها الضريح المحاط بسياج من النحاس الأصفر المنقوش فوقه أسماء الله الحسنى، وعلى الجدران كتب بالخطّ الكوفي أسماء آل بيت النبوّة والحضرة الزكيّة، ثمّ نسب صاحب الضريح وشجرته العترة؛ أرض حجرة الضريح صنعت من زجاج سميك شفّاف، والماء يجري من تحته، والضريح رابض فوق الماء وفوقه قبّة وعمامة الشيخ الخضراء وسبحة وعباءة وشعرة من ذقنه وُضعت كلّها في طاقة للتبرّك، الحجرة تسبح في نور سماويّ يميل إلى الاخضرار لا يعرف من أين يأتي. المهندس الذي بنى الجامع والضريح أراد أن يشيّد ما لم يشيّد من قبل، وحين اقترح على المسؤولين ما ينتوي فعله اعتبروه مجنونًا، كان الطلب غريبًا، أن يحوّل مجرى النيل ليمرّ من تحت الضريح، حتى المحافظ هزّ رأسه وكتفيه في أسف: هذا الطلب فوق مستوى قدراتي وسلطاتي، يحتاج موافقة أعلى سلطة سياسيّة في البلد. الغريب أنّ طلب المهندس نفّذ وبأسرع ممّا تخيّل الجميع، كيف حدث ذلك؟ لا أحد يعرف، وتمّ تحويل مجرى نهر النيل للمرة الثانية في تاريخ البلاد وعدّت من كرامات الوليّ. الشوارع والحواري والأزقّة التي تفضي وتلتفّ حول الجامع والضريح تمّ تنظيفها ورصفها وتشجيرها، والعشوائيّات أزيلت وحلّت محلّها دكاكين لبيع الحلوى والمأكولات السريعة والهدايا التذكاريّة، فخيَّم شعور بالطمأنينة على الناس في بولاق الدكرور، ورموا أوزارهم وأوجاعهم ومتاعبهم على ولي الله الشيخ نور الدين الدكروري، الذي ما إن يُذكر اسمه حتى يُقرن بشي لله يا سيدي، وسرّه الباتع ملأ البيوت والقلوب غبطة.

ودائمًا ما تتحكّم العادة في الناس، وأصبحت العادة هي إقامة مولد للشيخ في العشر الأواخر من شهر رمضان، تتجلّى فيه الأنوار القدسيّة على الناس والدور والأزقّة والحواري فيطعم الهاجع والناجع والنائم على الطوى، ويجيء أصحاب الطرق الصوفيّة، كلّ شيخ وله طريقته وأعلامه وبيارقه وأناشيده وكراماته.. وتمرّ الأيّام، وما أكثر مرورها ودورانها، ويصبح للشيخ طريقة تعرف بالطريقة الدكروريّة، وتقام لها زاوية بالقرب من الجامع، يدخلها أتباع لا حصر لهم، وحلّت بركته على الجميع بمن فيهم أهل بيته. بديعة تمّ نقل رفاتها لتدفن بالقرب منه، وقبل أن يمرّ وقت كثير يحدث معها مثل ما حدث مع زوجها ويتمّ تعميدها وليّة وشهيدة عشق زوجها الولي الصالح، وينسب الناس لها الكرامات وشجرة نسب تنتمي للعترة المحمّديّة.. ومع مرور الزمن ينسى الناس كعادتهم كل ما هو حقيقيّ وأرضي ليتعلّقوا بالأساطير، وفي أوقات الشدّة والملمّات تتراءى بديعة للناس على هيئة قرص من النور المضيء فوق إحدى مآذن الجامع الكبير، فتنفرج كرباتهم برؤية الكرامة.. هكذا جرى العرف، فآفة البشر النسيان؛ وابنتها فتحيّة التي قاربت الستّين ذهبت إلى الحجّ

وعادت لتقيم طوال الوقت بجانب أبيها وأمّها مرتدية جلاّبيّة بيضاء والمسبحة لا تغادر أصابعها، وقد انحفرت فوق جبينها علامة داكنة من أثر السجود؛ أمّا رمضان زوجها ففوّض أمره إلى الله معتبرًا زوجته ماتت، فعكف على تربية عياله بهمّة لا تعرف الكلل؛ محاسن أصابها الخرف بعد أن تخطّت الثمانين فأخذت تهذي في آخر أيّامها، وتنادي على كل الميتين حتى لحقت بهم. . ولم تمرّ سنة حتى لحقت صديقة بأختها من أثر إصابتها بداء السلّ؛ أمّا نصر وصفاء فعاشا عمرًا مديدًا أنجبا خلاله أربعة أولاد وثلاث بنات، وكانت له مثال الزوجة الصالحة حتى أتاهما هادم اللذّات ومفرّق الجماعات، فسبحان الحي الذي لا يموت، صاحب الملك والملكوت.

(بولاق الدكرور:
٩ رمضان ١٤٢٤/ ٣ نوفمبر ٢٠٠٣ ـ
١٧ رمضان ١٤٢٥ / ٣ نوفمبر ٢٠٠٤)

الفهرس

صدر للكاتب

قصص

١ ـ حكايات الديب رماح، طبعة أولى ـ الهيئة المصريّة العامّة للكتاب ١٩٨٧؛ طبعة ثانية ـ مركز الحضارة العربيّة ١٩٩٥.

٢ ـ حرب أطاليا، طبعة أولى ـ الهيئة المصريّة العامّة للكتاب ١٩٨٨؛ طبعة ثانية ـ مركز الحضارة العربية ١٩٩٨.

٣ ـ حرب بلاد نمنم، طبعة أولى ـ مركز الحضارة العربيّة ١٩٩٧.

٤ ـ قرن غزال، طبعة أولى ـ دار سندباد ٢٠٠٢؛ طبعة ثانية ـ الهيئة المصريّة العامة للكتاب (مكتبة الأسرة) ٢٠٠٤.



روايات

١ ـ كتاب التوهّمات، طبعة أولى ـ الهيئة المصريّة العامّة للكتاب ١٩٩٢.

٢ ـ العاشق والمعشوق، طبعة أولى ـ دار شرقيّات ١٩٩٥؛ طبعة ثانية ـ الهيئة المصريّة العامّة للكتاب (مكتبة الأسرة) ١٩٩٦؛ طبعة ثالثة ـ مركز الحضارة العربيّة ١٩٩٨.

(ترجمت إلى الفرنسيّة لدار النشر غاليمار ١٩٩٨، كما قرّرت على طلبة كلّيّة دراسات عربيّة، فرع الفيّوم ـ العام الدراسي ٩٦/ ١٩٩٧).

٣ ـ مسالك الأحبّة، طبعة أولى ـ مركز الحضارة العربيّة ١٩٩٧.

قرّرت على طلبة السنة الرابعة، كلّيّة التربية الفنّيّة ـ العام الدراسي ١٩٩٨/١٩٩٩.

٤ ـ الجنى، طبعة أولى ـ الهيئة المصريّة العامّة للكتاب ١٩٩٩.

٥ ـ يوميّة هروب، (جزء أوّل)، طبعة أولى ـ مركز الحضارة العربيّة ١٩٩٩؛ طبعة ثانية ـ دار الانتشار العربي، بيروت ٢٠٠٠.

كتب أخرى

ـ سيرة علي الزيبق (مقدّمة ودراسة للنصّ الأصلي) ـ الهيئة المصريّة العامّة للكتاب ٢٠٠٣

ـ طقاطيق الست توحيدة (دراسة ونصوص) ـ قيد النشر.

ـ القصص الشعبي الديني في مصر (دراسة ومختارات) ـ قيد النشر.

ـ سيرة أبي علي بن سينا (دراسة مع النص الأصلي) قيد النشر.

ـ شقّ القمر (رواية) ـ قيد النشر.

